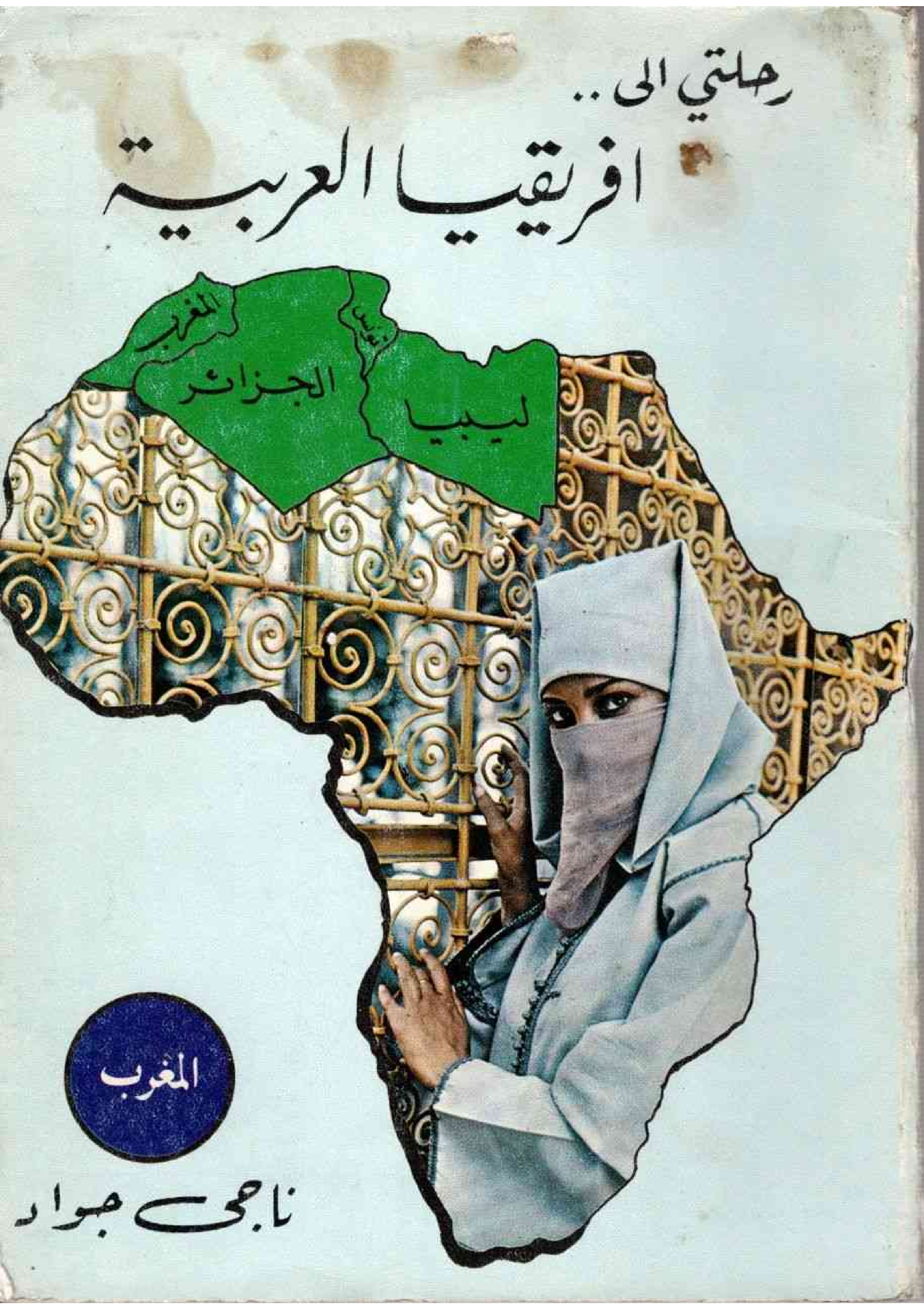
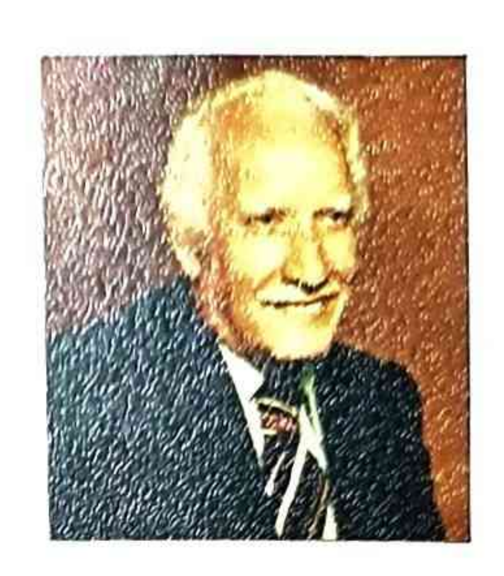

رحلتي الى ..
افريقيا العربية
المغرب
الجزائر
تونس
ليبيا
المغرب
ناجي جواد



- وُلِدَ في مَحَلَّة «صبَابيغ الآل» من بغداد عام ١٩٢٢ .
- كانَت أُمنيَّته ان يتوفر على دراسة القانون . وقد نال ليسانس الحقوق .
- من هواياته : الأسفار والمطالعة والكتابة . . .

رحلتـي الـى ....

افـريقيـا العربيــة
المغـــرب



ناجـي جـواد

١٩٨٣ بغـداد

إلى

مرآتي الصافية سيرةً ومسيرة...

ورفيقي الرقيق.. يوم تراجع الرفيق!..

وصديقي الصدوق.. يوم عزَّ الصديق!..

إلى أوَّل فرعٍ في شجرة حياتي

إلى بني البار..

الدكتور شوقي

أُهدي آخر ثمرات جهدي

الأ. د. علي

ناجي

تقديم

بقلم : العلامة الدكتور عبد الهادي التازي

لم يكن غريباً عليّ أن يقوم الاستاذ ناجي جواد الساعاتي بأخذ قلمه ليسجل مذكراته عن زيارته لوطنه الثاني : المغرب ، فقد لمست منه منذ اللحَظات الأولى التي زارني فيها وأنا أمارس وظيفة السفير لبلادي بالعراق الحبيب ، لمست فيه الشوْق الزائد لتلك الزيارة فهو يسأل عن تأريخ المغرب وعن معالمه الأثرية وعن مناظره الطبيعية ، وعن سكانه ومواطنيه . . .

وقد تجلّى من خلال حديثه أنه كان يكبر جدّاً جهاد جلالة المغفور له محمد الخامس وتجاوب الشعب المغربي قاطبة مع ذلك الجهاد وكان يريد أن يقف على هذه الأرض التي كان الاستعمار يصرّ على عدم التسليم فيها . . !

لقد كانت السيدة الفضلى حرمه تشاركه الأشواق والاذواق فأبت إلاّ أن تصحب (ناجي) حتى لا يضيع بين الجمال والكمال !

وفي الحقيقة أنني شعرت بالغبطة تغمرني وهما يعودان يحملان معهما باقات من العواطف حيال هذه الديار التي تظل مدينة للمشرق وللعراق بالخصوص فيما قدماه لها من مساعدة ثمينة لاسترجاع استقلالها وتحرير أراضيها واستكمال وحدتها الترابية . . .

ولقد شكرت للاستاذ ناجي أنه لم ينس معارفه القدامى واعتبرت ذلك منه وفاءً يدل على طيبوبة القلب وكرم النفس وعسى أن تحرك مذكراته هذه إخواننا الآخرين لزيارة ديارهم هنا . . .

د . عبدالهادي التازي
فيلا بغداد – حي السويسي – الرباط

باشرت رحلتي الى «افريقيا العربية» في مطلع ربيع ١٩٧١ . وكنتُ اثناء مراحل السفر . . . أدوّن انطباعاتي وخواطري وافكاري على شكل مذكراتٍ ، يوماً بيوم .

وبعد عودتي الى وطني الحبيب ، شرعتُ بوضع اللمسات الاخيرة على تلك المذكرات ، ومن ثم لدفعها - تباعاً - الى المطبعة وهذا هو الكتاب الرابع ، الذي خُتمت به رحلتي اقدمه للقراء الكرام ، كما دونتُ اصوله وفصوله قبل اثنتي عشرة سنة دون تعديل او تبديل .

ن . جـ

تموز ١٩٨٣

المغرب في موكب التأريخ

الواقع أن تأريخ المغرب بقي مجهولاً حتى عصر الفينيقيين وذلك لأن المغاربة القدامى لم يكتبوا تأريخهم فضاعت أخبارهم ولم تصلنا أحاديثهم وأحداثهم .

وبجهود العلماء المجدية إستطاعوا أن يستقرؤا الأثار التي عثروا عليها وان يجمعوا بعض المعلومات عن تلك العصور الغابرة ، فقرروا أن المغرب كان آهلاً بالسكان منذ عهد بعيد ، وانهم كانوا سود البشرة ، وأن الكنعانيين استوطنوا المغرب ، وقد تدفقت موجاتهم عليه من جنوب بلاد العرب من البحرين ، وكانت هجرتهم الأولى موغلة في القدم .

وبذلك يؤكد العلامة ابن خلدون عن نسب المغاربة فيقول (الحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان) .

ولما إنتصر بنو إسرائيل على الكنعانيين الفلسطينيين عام ١٢١٥ قبل المسيح أرغموهم على الهجرة . . . ! فنقلهم الفينيقيون على سفنهم الى شمال أفريقيا ، ونزلوا على إخوانهم الكنعانيين الأقدمين .

وجاء بالتوراة ، ان هؤلاء الكنعانيين كانوا على جانب عظيم من الحضارة والقوة والغنى .

وحدثنا مؤرخو اليونان بانهم وجدوا في شمال أفريقيا مكتوبا على الرخام الأبيض هذه العبارة (إننا لحقنا بهذه الديار هربا من قاطع السبل يوشع بن نون) .

ولما إنتصر الرومان على (قرطاجنة) وإستولوا على جميع مستعمراتها دخل المغرب تحت نفوذهم .

وعندما ضعفت الامبراطورية الرومانية أخذت تهاجمها قبائل الوندال المتبربرة ، وتستولي على أراضيها شيئاً فشيئاً ، إذ بعدما إحتلوا فرنسا تقدموا الى اسبانيا ثم إحتلوا الشمال الافريقي وطردوا الرومان وطاردوهم ، ثم كونوا (دولة وندالية) فيه .

وحينما ضعفت دولة الوندال أغار البيزنطيون على الشمال الافريقي وقضوا على دولتهم وإحتلوا المغرب . كما امسى الشمال الافريقي تابعاً للأمبراطورية البيزنطية . حتى تشرف بالفتح العربي الاسلامي .

عصر الأدارسة .

لبعد المغرب عن مركز الخلافة الأسلامية أضحى المغاربة يطمحون لتكوين دولة مغربية إسلامية . إقتداء بأهل الأندلس . ولما كانت قبائل المغرب متفرقة الكلمة وكل قبيلة تنشد الزعامة لنفسها ولا ترغب بالخضوع لأحكام غيرها . لذا أمسى المغرب مسرحاً للثورات الداخلية . توقد جذوتها العنعنات القبلية . واستمر كذلك حتى جاء (مولاي إدريس بن عبدالله)[1] فوحد الكلمة وأسس الدولة المغربية الأدريسية عام ١٧٢ هـ .

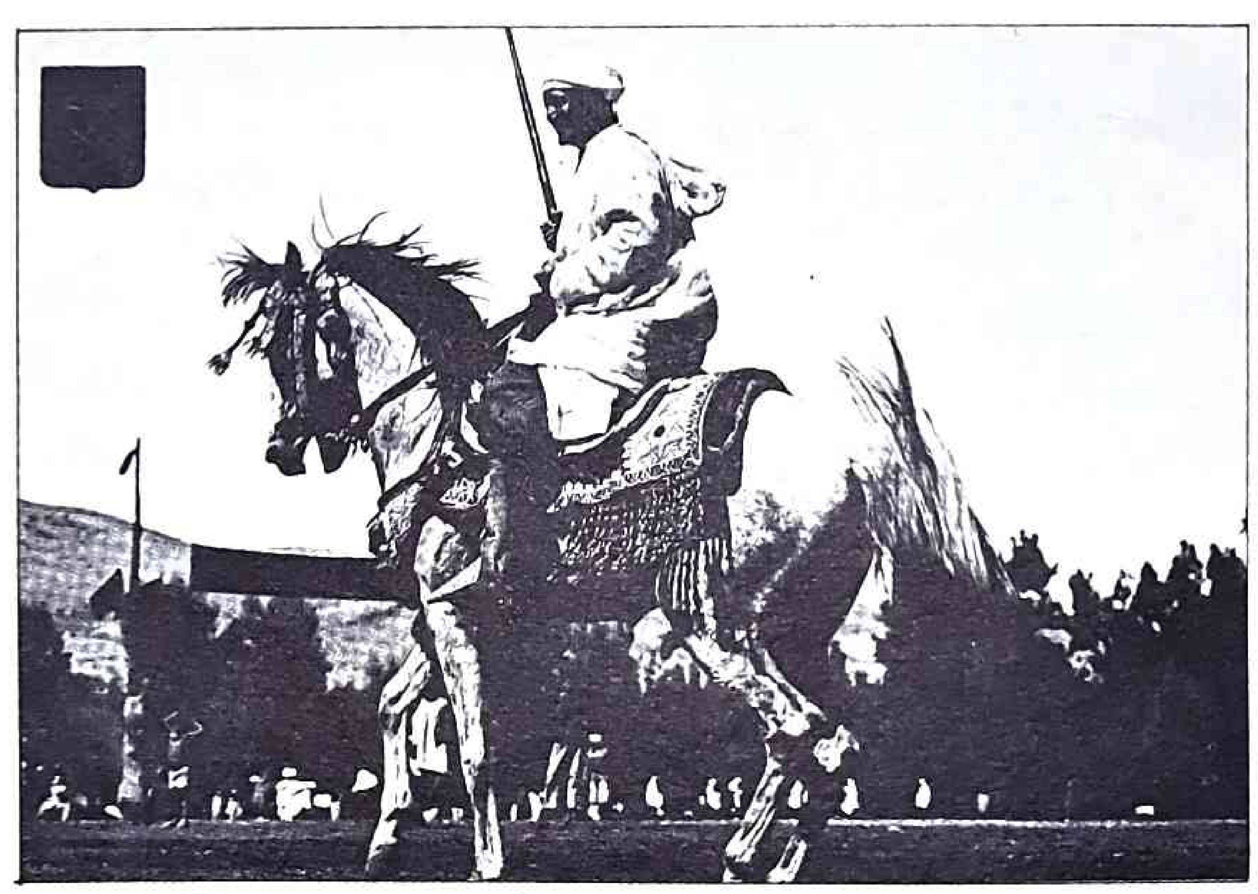
وقصة هذا البطل غريبة وطريفة . يجمل بنا سردها . لتعلمنا كيف يكون الصمود أمام النكسات . . . وكيف تحل المعضلات . وندرك أن العيب ليس في فشل الأنسان . وانما العيب كل العيب عندما ينهزم الأنسان . . . .

فكلنا يعلم بأن الصراع كان مستمراً بين العلويين والعباسيين على الخلافة . حيث كان العلويون يعتقدون بأنهم أحق بها من العباسيين . ولما ثار العلويون على العباسيين في الحجاز فشلت الثورة وقضي عليها . أخذ العباسيون يطاردونهم . إستطاع مولاي أدريس أن يهرب ويصل الى المغرب متخفياً ونزل على (عبدالحميد الأوربي المعتزلي) ضيفاً .

وكان عبدالحميد هذا زعيماً لقبيلة (أوربا) وحاكم مدينة (وليلي) لذا إستضافه وكرمه وبالغ في إكرامه كما جمع له زعماء قبائل (وربة) وعرفهم بنسب مولاي أدريس وعلمه وفضله . وعرض عليهم مبايعته فبايعوه ثم تبعتهم أغلب القبائل المغربية فاضحى ملكا على المغرب .

---

(١) هو السيد أدريس الأول بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .



فارس مغربي بزيه الريفي

وعندما تمكن مولاي أدريس من جمع كلمة المغرب فتح (تلمسان) فتعزز سلطانه وارتفع شأنه . وتجاوزت عظمته بلاد المغرب وطارت شهرته الى المشرق حتى بات الخليفة هرون الرشيد يخشى طموحه ويقلق على مستقبل الخلافة العباسية . لذا أخذ يكيد له المكائد ليقضي عليه ، فأرسل اليه (سليمان بن جرير الشماخ) وكان من اكبر العلماء والأدباء ، فصيح اللسان قوى الجنانْ فأظهر لمولاي أدريس الطاعة وتظاهر بالأخلاص ، وقام ببث الدعاية له بين المغاربة حتى إذا ما أطمأن اليه دس السم لمولاي أدريس وقتله عام ١٧٧ هـ ، ودفن في مدينة (زهرون) الخالدة . إذ مازال المغاربة يزورون مسجده وعنده يصلون . وبمرقده يتبركون والى جواره يركنون .

عصر المرابطين

في الصحراء المغربية نشبت حرب أهلية بين قبيلتي (كدالة) و (لمتونة) فغادر (الأمير أبو بكر) قاصداً الصحراء مستخلفا أبن عمه (يوسف بن تاشفين) على المغرب .

وبينما كان الأمير أبوبكر يقاتل في الصحراء ليخضع القبائل راح يوسف يتقدم في المغرب فأخضع ملوك الطوائف وانزلهم عن عروشهم ثم قضى عليهم ، وعندها أصبح يوسف ملك المغرب ، واضحت مملكته مكونة من بلاد المغرب والجزائر شمالاً وبلاد السودان جنوباً .

ولما تفرقت كلمة المسلمين العرب بالأندلس وسقطت مدينة (طليطلة) إعتقد الملك (الفونسو) بأن كل شيء قد بات ممكنا ، لذا سار بجيشه واخذ ينتزع المدن الأندلسية واحدة تلو الاخرى حتى وصل بسائط أشبيلية ، عندها إتفق أمراء المسلمين على أن يرسلوا سفيراً الى أمير المرابطين في المغرب يوسف بن تاشفين يلتمسون عونه ، ويرجونه العبور لاسبانيا لنجدتهم وإنقاذهم .

فلبى يوسف دعوتهم وعبر بجيشه من مدينة (سبتة) الى الأندلس وعندما وصلها خف لأستقباله جمع غفير من الأمراء والفرسان والعلماء .

ولما علم الاسبان بقدوم جيش المغاربة التحم الجيشان في سهل (زلاقة) ودارت بينهما حرب طاحنة إنتهت بأنتصار المسلمين على الأسبان إنتصاراً ساحقاً ، وسميت الواقعة (الزلاقة) بأسم ذلك السهل .

والبطل يوسف بن تاشفين هو الذي أسس مدينة (مراكش) وجعلها عاصمة لمملكته الواسعة ولم يشيد لمراكش سوراً ، لأنه كان شجاعاً عادلاً متواضعاً .

فلم يخشَ الغوغاء لأنه شجاع .

ولا يهاب الثورات لأنه عادل .

ولم يعلن عن نفسه ملكاً بل قائداً لأنه متواضع .

ومصداقا للمثل المشهور (وراء كل عظيم إمراة) يجدر بنا أن نسجل بمداد من التقدير والأعجاب ما للسيدة زينب زوجة الملك يوسف من فضل في تعدد

إنتصاراته وهيبة سلطانه وما لتقديراتها الصائبة من أثر في ترسيخ قواعد عرشه وانتشار ملكه .

فبحكمة زوجته الفاضلة وحلمها تمكن زوجها يوسف من كسب عطف إبن عمه الأمير ابي بكر الذي البه عليه الحساد وأوغروا قلبه بالاحقاد حتى جعلوه يعود من الصحراء بجيش جرار ليحارب (ابن عمه يوسف وليسترجع حقه في السلطة والأمارة . وكان رأي يوسف أن يقف وجهاً لوجه لمحاربته ، لكن زوجته الذكية أشارت عليه أن يقدم فروض الطاعة وواجب الوفاء لأبن عمه الامير أبي بكر لسابق فضله عليه وان يعامله بكل لطف ورفق ، فرضخ الملك يوسف لرغبة زوجته – وأي رجل لايرضخ لرغبة زوجته . . . ! ؟

ولما رأى الامير ابو بكر لطف أبن عمه وطاعته تنازل له عن السلطة وقفل راجعاً الى الصحراء .

وبحكمة السيدة زينب نجح يوسف بن تاشفين نجاحاً دبلوماسياً باهراً ، كما نجت البلاد من حرب أهلية ضارية .

عاش الملك يوسف بن تاشفين مائة عام قضى منها في الملك ٤٧ سنة كانت من أسعد أيام المغاربة الحافلة بالأنتصارات الباهرة والمنعمة بالعدل والأمان والأخلاص للفضيلة والأيمان .

وفي بيت متواضع من بيوتات مراكش زرت مرقد هذا البطل الذي عمل بصمت ومات بصمت .

عصر الموحدين

في المغرب بدأ (المهدي بن تومرت) يدعو لنفسه وينشر بين أهله وذويه أنه المهدي المنتظر الذي ذكره رسول الله (ﷺ) بانه (سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجورا) ، ودعي من يناصره ويؤمن بدعوته (بالموحدين) لأن المرابطين لا يوحدون الله ولا يؤمنون به الأيمان الصحيح .

وحدثت في هذا العصر أحداث دولية جسام منها أن الخلافة العباسية في بغداد

تغلب عليها زعماء الجيش التركي ، كما ضعفت الخلافة الفاطمية في مصر ، واتحدت دول أوربا معلنة الحرب على المسلمين في الاندلس وفلسطين التي عرفت بالحروب الصليبية) .

فراى المهدي ان من واجبه أن يكون خلافة إسلامية قوية تستطيع الصمود أمام الزحف الأوربي الصليبي وترغم الصليبين على الرجوع الى بلادهم .

لذا أعلن المهدي بن تومرت الثورة على دولة المرابطين التي بان ضعفها وظهر عجزها ، فوقف معه أنصاره من (المصامدة) ومن آمن بدعوته من قبائل المغرب يحاربون المرابطين ، وقد دامت هذه الحرب ٢٥ عاماً ذهب ضحيتها الكثير من أبطال المغرب والاندلس .

وأخيراً ضرب عبدالمؤمن بن علي الحصار على مدينة مراكش وظلت هذه المدينة محاصرة حتى سقطت ، ودخلها الموحدون بالسيف فقتلوا كثيراً من الوجهاء والأعيان والأبرياء ، وحينما جاؤا بالأمير الصغير (أبي اسحاق إبراهيم بن‌تاشفين) أمام عبدالمؤمن أشفق على الأمير لصغر سنه وهم أن يعفو عنه ويسجنه ، فقال له بعض الموحدين محرضاً (أتحب أن تربي فرخ أسد) فغضب وقتله ومن معه ، واستمر القتا في أهل مراكش ثلاثة أيام ، وبأنتهائه إنتهى عهد المرابطين .

عصر الشرفاء السعديين[١]

السعديون حجازيون ، أصلاً حيث هاجر جدهم (أحمدبن محمد بن القاسم) من الحجاز الى المغرب ، ونزل (درعة) ثم تزوج وخلف اولاداً انتقل أحدهم من (درعة) الى بلاد السوس .

وكان من احفاده (محمد بن‌عبد الرحمن) العالم الفاضل الذي إستطاع بحكمته وشجاعته أن يكون في السوس إمارة السعديين ، كما أسس قلعة (اكادير)[٢] ثم إنطلق لمحاربة البرتغاليين .

---

(١) سموا بالسعديين لأن المغاربة كانوا يتفاءلون بهم في حروبهم مع البرتغال .

(٢) أكادير : وتعني بلغة أهل السوس (الدار) .

ولما توفى هذا العالم البطل خلفه في الأمارة ولده أحمد ويعرف بالأعرج . وكان الامير أحمد بطلاً من ابطال المغرب الذي سجل له تأريخها أروع الانتصارات على البرتغاليين ، كما أحتل مدينة مراكش سنة ٩٣٠ هـ وجعلها عاصمة السعديين .

وكلنا يعلم بان البرتغال كانت لها مطامع في المغرب كما كانت مطامع أسبانيا في تونس والجزائر ، فتم الاتفاق بينهما على تقسيم الشمال الافريقي بحيث تطلق إسبانيا يد البرتغال في المغرب ، مقابل أن تطلق البرتغال يد الاسبان في تونس والجزائر .

بينما كانت رغبة تركيا بأن تجعل الشمال الافريقي خاضعاً لها كما خضعت أغلب الدول الاسلامية في الشرق .

ولما كان (لكل زمان دولة ورجال) فكانت السيادة للأمبراطورية العثمانية في ذلك الزمان ، حيث كانت تركيا أعظم دولة في العالم .

وكانت السيادة للبرتغال في البحر ، كما كانت اسبانيا لا تقل عن تركيا قوة .

ويرجع الفضل الى السعديين في الدفاع عن المغرب ضد مطامع هذه الدول وصد غزواتها والمحافظة على استقلاله .

والأحداث علمتنا ان الدول كالناس اذا نام حظها إستيقظت عيون الاقدار حولها ، فرأينا عندما هاجر المسلمون من الاندلس الى المغرب صادف أن دولة السعديين قد ضعفت وبان انحلالها وظهرت في المغرب إمارات مثل (امارة الشبانات) و (امارة الدلائين) و (امارة العلويين) .

ونستطيع ان نستدل من حديث صاحب (نفح الطيب) على سوء الصدف التي رافقت هجرة الأندلسيين حيث يقول (خرجت الوف بفاس والوف بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس فتسلط عليهم الأعراب في الطرقات ونهبوا اموالهم ونجا القليل منهم في هذه المحنة) .

ولكن رغم هذه الضربات القاصمة فالأصالة تصمد وتسمو لذا نجد الاندلسيين المهاجرين إستطاعوا أن يؤثروا في حضارة المغرب تأثيراً قوياً لأصالتهم الحضارية والثقافية ، فالسائح حتى يومنا هذا يشاهد الكثير من آثارهم منتشرة في المدن المغربية وعند تجوالي بسيارة الأجرة في مراكش رجوت السائق أن يطوف بي على الآثار ، ثم

ينعطف أخيراً على مقبرة الشرفاء السعديين فرأيتها آية في الفن الأسلامي المغربي . ولو رأيتني وأنا أطوف ثم أطوف بين أطلال تلك الآثار والديار ودوارس القصور والقبور ، لتخيلت أن أبا نؤاس عناني وأنا الجوالة (الأسدي)[١] حين قال ساخراً بالأنساب قصيدته اللئيمة .

عـــاج الشقي على رسم يســـائـــلــه ورحت أسأل عن خمارة الـــبـــلـــد
يـــبـكـي على طـلـل الماضين من أسد لادر درك قـــل لي من بــــنو أسد

عصر العلويين[٢]

الملوك العلويون هم ابناء عمومة الملوك السعديين ويطلق عليهم الاوربيون الدولة الشريفة لان نسبهم يتصل بالرسول (ﷺ) .

من بين الامارات التي برزت عندما ضعفت دولة السعديين امارة العلويين ، ولما كان (مولاي رشيد) رجلاً ذكياً وقوياً فقد إستطاع ان يوحد الامة المغربية ويقضي على جميع الامارات ويؤسس الدولة العلوية ، كما استولى على مراكش واتخذها عاصمة لملكه .

وبعد وفاته بايع المغاربة أخاه (مولاي إسماعيل) ولهذا الملك يعود الفضل في توطيد أركان الدولة العلوية التي مازالت تحكم الشعب المغربي الى الآن .

فقد كون مولاي إسماعيل جيشاً منظماً وتمكن أن يجرد جميع القبائل من السلاح وشيد قلاعاً تشرف على القبائل لترصد تحركها وتسيطر على ثوراتها ، وأعاد الصحراء الكبرى وبلاد السودان لحكمه كما استطاع أن يطرد الأوربيين من الشواطئ التي إحتلوها عندما ضعف المغرب ، وفتح (المهدية) عنوة ، ثم أرغم الانكليز على الخروج من (طنجة) بعد أن هدوا أسوارها وأبراجها .

---

(١) الاسدي : نسبة الى عشيرة (بني أسد) التي يعود شرف نسبي اليها (المؤلف) .

(٢) لقبوا بالعلويين : لأنهم يتسبون الى الأمام علي بن أبي طالب (ع) .

وكان مولاي إسماعيل معاصراً للملك فرنسا لويس الرابع عشر ، وكان يشبهه في قوة شخصيته وعظمة ملكه ، لذا تمكنت بين الملكين القويين صداقة متينة واحترام متبادل ، وفي سنة ١٦٨١م أرسل مولاي إسماعيل وفداً الى فرنسا ليتناقش مع الملك لويس في مسائل تهم البلدين ، كما أوصى السلطان مولاي إسماعيل رئيس الوفد أن يفاتح الملك برغبته في الاقتران بالأميرة (دي كونتي) لشد روابط العائلتين الملكيتين ، ولكي يتشبه بملوك أوربا ، وخاصة بعد أن إنتصر على الأوربيين المحتلين لبعض المدن المغربية وأجلاهم عنها .

وقد جعل مولاي إسماعيل مدينة مكناس عاصمة لملكه بدلاً من مراكش وحدثنا المؤرخ (الزياني) عن مدينة مكناس في عهد السلطان اسماعيل فيقول (واما مبانيه بقلعة مكناسة وقصوره ومساجده ومدارسه وبساتينه ، فشئ فوق المعهود بحيث تعجز عنه الدول القديمة والحادثة . من الفرس واليونان والروم والعرب والترك ، فلا يلحق ضخامة مصانعه ماشيده الاكاسرة بالمدائن ولا الفراعنة بمصر ولا ملوك الروم بروما والقسطنطينية ولا اليونان بانطاكية والأسكندرية ولا ملوك الاسلام ودوله العظام كبني أمية بدمشق وبني العباس ببغداد والعبيديين بافريقية ومصر والمرابطين والموحدين وبني مرين والسعديين بالمغرب وما بديع المنصور بقصر من قصوره ولا بستان المسرة باحد من بساتينه ، فقد كان عنده بجنان الحمرية مائة الف قعدة من شجر الزيتون . . . ثم يقول المؤرخ الزياني ولقد شاهدت الكثير من أثار الدول فما رأيت أثراً اعظم من آثاره ولابناء أضخم من بنائه ولا اكثر عددا من قصوره) .

ويجمل بي أن أناقش المؤرخ الزياني مناقشة موضوعية حرصاً مني على تحري الحقيقة العلمية متجنباً التعصب القبلي ، وبعيداً كل البعد عن التشدق والتبجح الشخصي ، فإن إطلاعي على حضارات الأمم ومشاهدتي الكثير من المدن أمر فرضته على طبيعة عملي التجاري ، وشدة ولعي بالأسفار ، وروابط النسب التي شدتني مع الأدباء العرب ، كلها مجتمعة حتمت عليّ الأطلاع على اكثر الآثار والأطلال واستجلاء الأخبار التي ذكرها المؤرخ الزياني وقارنها بحضارات الأمم وانجازات

الشعوب ، ثم أخذ يصغر حجمها ويقلص ظلها ليشمخ بالأعمال العظيمة الضخمة للسلطان إسماعيل في مكناس .

ولا أنكر إنني ممن جاملهم الزمان كثيراً فأتاح لي الفرص السعيدة لتحقيق آمالي العريضة بالسفر الى مصر لأرتقي الأهرامات وأركع في (جامع الأزهر) وأنزل الى (وادي الملوك) وأتطلع الى (معبد الكرنك) ثم لأشاهد (الكالوسيم) في مدينة روما وأصعد الى (الأكرو بولس) في أثينا ، وكم عرجت نحو دمشق العزيزة فأخشع في (الجامع الأموي) ، طويلاً ، وأعجب بآثار المرابطين في مدينة (مراكش) وأزور (مسجد الكتيبية) وأطوف في (مقبرة السعديين) .

ومنذ طفولتي حتى بلغت التاسعة والأربعين - يوم زيارتي لبلدان المغرب العربي عام ١٩٧١ م — وأنا أطوف ببغدادي الحبيبة وضواحيها ومازالت بنايات العباسيين أنى توجهت تصادفني وآثار متحفها الزاخر بحضارة وادي الرافدين تصافحني .

ولو لم أشاهد مدينة مكناس وأسوارها وابراجها وما تبقى من قصورها وجوامعها ، لخضعت لمغالاة الكاتب (الزياني) ووصفه فهي فخمة وعظيمة ولكنها لايمكن أن تطمس فخامة وعظمة حضارة الأمم القديمة والحديثة ، على حد تعبير الكاتب المؤرخ الزياني ، الذي أسهب وأطنب ، حتى أضاع جوهر الموضوع الشيق ، وطمس الحقيقة العلمية بمبالغته وتعصبه القبلي ، ولعمري ان هذا لا يتناسب والبحث العلمي .

مؤامرات الدول الاوروبية علىٰ المغرب

إستمرت العلاقة بين المغرب وفرنسا حسنة منذ عهد مولاي إسماعيل حتى إحتلت فرنسا الجزائر وبلورت الأحداث الجسام شخصية الثائر العربي (الامير عبد القادر الجزائري) الذي أظهر ضروباً من الشجاعة والبسالة في حربه مع الفرنسيين .

ولما خذله أصحابه خرج من الجزائر ولجأ الىٰ المغرب وأخذ يشن غاراته علىٰ الفرنسيين في الجزائر ثم يعود ليحتمي بالمغرب إتخذت فرنسا من لجوئه ذريعة للحرب مع المغرب .

وكلنا نعلم مدىٰ مطامع فرنسا الاستعمارية وطموحاتها الأستثمارية لذا أرسلت جيشها عام ١٨٤٤ م واصطدم بجيش المغاربة في وادي (أيسلي) كما اطلق الاسطول الفرنسي مدافعه على مدينة (الصويرة) فامست انقاضاً وبدا الفشل على الجيش المغربي ، ولم يخذل المغاربة الا المغاربة ، إذ أشاع المرجفون بأن السلطان قتل فتسابق الجشعون الى نهب المال والمضارب ، ولاذ الجبناء بالفرار ، مما إضطر السلطان على عقد الصلح مع فرنسا ، الذي ختم به إستقلال المغرب .

ثم أخذت دول اوروبا تفرض نفوذها على المغرب طامعة فيه مستضعفة اياه فملكت فرنسا وبريطانيا واسبانيا والمانيا وأمريكا امتيازات فيه ، وبات يئن من هذه الأمتيازات المجحفة ، ولكن الاغنياء والبشوات لم يشعروا بوطاتها لأن مصالحهم الخاصة بخير والحمد لله (إذا مت ظمآناً فلا تزل القطر) وكان رجال الدين والعلماء ينشرون تعاليمهم المثبطة للعزائم المخدرة للطموح فيوحون للناس بأن الثقافة العصرية كفر والأشتغال بالوظائف الحكومية خروج على الدين .

ولما شعرت اسبانيا بضعف المغرب المغلوب علىٰ أمره راحت هي الاخرىٰ تطالب بكثير من الحقوق والأمتيازات ، ولم تقنع بذلك بل إنتهزت الخلاف على حدود (سبتة) ذريعة لأعلان الحرب علىٰ المغرب ، فأرسلت جيشها وعززته

باسطول قوي حيث لم يستطع جيش السلطان المتخلف في عدته والقليل في عدده والذي لازم قدمه واسترخىٰ لضعفه أن يصمد أمام تيار الجيش الأسباني الزاحف من سبتة الى تطوان لذا فقد استسلم السلطان وفق معاهدة جائرة .

ولما شعر اليهود بضعف المغرب المغلوب علىٰ أمره انتهزوا الفرصة كعادتهم في إنتهازها في الأزمات الأقتصادية والسياسة واخذوا يطالبون الدول الأوروبية بحمايتهم . . . ! فأرسلت الجمعية اليهودية أحد أعضائها الىٰ (مراكش) كي يطالب السلطان بأن يمنح امتيازاً لهم وأوصت بريطانيا سفيرها في المغرب أن يبذل جهوده لمساعدة الوسيط اليهودي .

ولضعف السلطان وقوة السفير حصل اليهود على ظهير (مرسوم) من السلطان يتضمن ما أو جبه الله من حفظ الذمة ومساواة الرعية بالحقوق والألتزامات .

لكن اليهود اتخذوا من هذا الظهير مستمسكاً وكتبوا منه نسخاً وزعوها علىٰ اليهود والأجانب ، ثم ظهر منهم التحدي والتعدي حتىٰ تجاوزوا روح المواطنة وتنكروا للمغاربة وطالبوا بتكوين دولة يهودية في المغرب .

كل هذه المشاكل مجتمعة زادت المغرب ضعفا على ضعف فكثرت الثورات الداخلية وأنتشرت الفوضىٰ وأخذ السلطان يصرف الأموال للقضاء علىٰ الثورات ، والسيطرة علىٰ البلاد ، حتىٰ اضطر الىٰ الاستدانة من فرنسا . . ! فاقرضته بشرط ان يعطي لها حق التدخل في مالية المغرب ومراقبة ديوانه .

وأخيراً تنتهي مسرحية مؤامرات الدول الأوروبية علىٰ المغرب بتوقيع السلطان مولاي عبد الحفيظ تحت التهديد العسكري والضغط الدبلوماسي[1] عقد الحماية عام ١٩١٢ وبذلك رضخ المغرب لرغبات فرنسا واسبانيا بان يقسم الى مناطق نفوذ .

---

(١) فقد تم الاتفاق بين فرنسا وايطاليا عام ١٩٠١ على أن تطلق فرنسا يد ايطاليا في طرابلس الغرب مقابل ان تطلق ايطاليا يد فرنسا في المغرب .

وتم الاتفاق بين فرنسا وبريطانيا عام ١٩٠٤ على ان تعترف فرنسا لبريطانيا بحمايتها علىٰ مصر وتترك بريطانيا لفرنسا الحرية في المغرب .

١ – المنطقة الجنوبية   تحت حماية فرنسا
٢ – المنطقة الشمالية   تحت حماية أسبانيا
٣ – منطقة طنجة   دولية

ولما رأىٰ الشعب المغربي تلك الحالة المزرية ثارت القبائل فتزعم المنطقة الغربية (الشريف أحمد الريسوني) كما تزعم المنطقة الشرقية (الشريف السيد محمد بن عبد الكريم الخطابي) .

السيد محمد بن عبد الكريم الخطابي

كان السيد عبد الكريم الخطابي فقيها تقيا ورعا ، لذا فقد اعترفت له قبيلة بني (ورياغل) بالزعامة ، وكان له ولدان الاكبر مُحمد والاصغر مَحَمد وقد رباهما تربية دينية ثم ارسلهما الى (مليلية) كي يكملا دراستهما العصرية ثم ذهب محمد الى تطوان ليدرس الشرع ثم الى فاس للدراسة في جامعة القرويين التي تعتبر مصدراً لكل الذين ينتسبون للعلم بديار المغرب ، وبعد مغادرته فاس اصبح محررا لجريدة إسبانية ، ولما مات الاب خلفه محمد في منصبه كقاضٍ في (مليلية) من اعمال الريف[1] الذي هو مسقط رأس محمد عام ١٨٨٢ .

ولما انتهت الحرب العالمية الاولى اخذت اسبانيا تستعد لبسط نفوذها على الريف المغربي ، فزحف الجيش الاسباني عبر الهضبة وشاهد امامه جبال الريف الشامخة التي كانت وما زالت حصنا منيعا لبلاد المغرب .

وسار الجيش ولم يعترض طريقه احد فقد رشوا رؤساء القبائل ، ما عدا قبيلة واحدة كان الخطابي قد انتزع منها وعْدا بأن توقد النار على قمم الجبال عندما يقترب جيش العدو منها .

بينما رسم الخطابي خطة للهجوم على حصن ظهر (أُوبرَّان) وذلك بان ارسل اخاه مَحمد مع نخبة من الريفيين الابطال الى الحصن فصاح[2] محمد (بفتح الميم) بالحراس (نحن اسبانيون افتحوا الابواب) فاطمأن الحراس وفتحوا الباب ، فتدفق الريفيون الذين تسلقوا سفح الجبل الى الداخل كالعاصفة وهم يهتفون : الله اكبر الله اكبر . . . وتستمر المعركة داخل الحصن وتنتهي بفناء الحامية الاسبانية كلها ، حيث سارعت القبائل للانضواء تحت لوائه .

---

(١) تقع بلد الريف في شمال المغرب وتمتد مسافة ١٢٠ ميلا وترتفع جبالها الى ٧٠٠٠ قدم وهي بلاد جميلة لكنها وعرة .

(٢) كان محمد (بفتح الميم) قد بعثه والده الى مدريد ليتخصص في هندسة المناجم ، حيث أتقن اللغة الاسبانية .



البطل عبد الكريم اكبر من الاسر واكبر من ان تحتويه جدران الزنازن
محمد بن عبدالكريم الخطابي

ولما لم يعد عنصر المباغتة والخدعة ينطلي على الاسبان بعد معركة حصن (أبَّران) عندها لجأ الريفيون الى تكتيك حربي جديد وذلك بأنهم اخذوا يحفرون الأنفاق تحت الحصون حتى يصلوا الى صحن الحصن ثم يحشوها بالمتفجرات ، فما أن تنفجر الارض في وسط الحصن حتى يفر الاسبان الى خارج الحصن ، عند ذلك يحصدهم الريفيون بنيرانهم (١) .

موقعة معركة انوال :

في مدينة (أنوال) وقف ستمائة ريفي مسلحون بالأسلحة ، تنقصهم الذخيرة ، ينتظرون الاشتباك مع جيش اوروبي حديث يتالف من أربعة عشر الف مقاتل مزودين بالاسلحة الثقيلة .

بينما كان الجنرال (سيلفتري) يراقب جيشه من سطح بيت في أنوال ، شاهد تراجعهم فجن جنونه ، ولكن غروره منعه من الاعتراف بالهزيمة ، لذا لم يبدأ بالانسحاب تلك الليلة ، اذلو فعل لعجز الريفيون عن مطاردته ، وذلك لعدم توفر الذخيرة لديهم وقضى الريفيون ليلتهم يبحثون عن الذخيرة .

وما أن أطلت شمس اليوم التالي حتى تراجع الجيش الاسباني خارج القرية وزحف عبر الممر الجبلي ، فاحاط بهم الريفيون إحاطة السوار بالمعصم ويومها سقط الجنرال سيلفترى قتيلا فانهار الجيش الغازي وانتصر المجاهد الريفي . .

ويومها اصاب العالم الدهشة وأذهله الخبر عندما سمع بتدمير الجيش الاسباني في معركة انوال اما في اسبانيا فقد عم السخط وسادت الفوضى وسقطت الوزارة وراح الشعب يتساءل اسئلة ذات مغزى لماذا ورطنا ساستنا في حرب المغرب . . . ؟ بينما بلادنا بحاجة الى الاصلاحات وان اقتصادنا يسير من سيئ الى أسوأ ، والشعب يسوده الفقر وتخيم عليه الامية ، وشبابنا ذهبوا للقتال ضحية الفقر الذي اقعدهم

---

(١) يقال ان الفيتناميين طبقوا هذا التكتيك بنجاح في معركة (ديان بيان فو) وانهم اقتبسوه من المغاربة الريفيين .

عن دفع بدل الخدمة العسكرية ، فكانوا وقودا لجيش رجال المال الذين سال لعابهم لخيرات أرض المغرب وخضرتها .

وبعد هذا الانتصار الجبار أعلن الخطابي استقلال بلاد الريف عام ١٩٢٢ م ودعا دول العالم الى انشاء علاقات دبلوماسية متكافئة مع جمهورية الريف ، بعد ان الف وزارة ، ورفض لقب السلطنة ، ولم يؤسس بلاطا ، وحافظ على بساطة العيش فلم يغير زيه الريفي كما استمر على اتصاله باهل الريف ينصت لشكواهم ويواسي جراحهم ويتجول في مضاربهم دون تكلف وأبهة .

لكن الدول القوية لا تعطي الفرصة الكافية للدول المتنامية للتقدم فتتحرش القوات الفرنسية المرابطة في جنوب الريف المغربي بالقبائل المغربية وتشيد الحصون في أراضيها مما دفعهم ان يستجيروا بأمير الريف الخطابي ، الذي لم يكن مخيرا في اعلان الحرب على فرنسا عام ١٩٢٥ بحكم (العرف)[1] القبلي .

وانتصر الخطابي انتصارا ساحقا وتساقطت الحصون وتراجعت جيوش الفرنسيين امام الجيش الريفي واصبح في ضواحي فاس ، وصعق العالم لاخبار البطولات المذهلة وشجاعة الريفي الاسطورية ، التي حدت بالقوات الفرنسية الى ان تتحالف مع القوات الاسبانية للاجهاز على الجيش الريفي .

وفي فجر الثامن من أيلول ١٩٢٥ فتح الاسطولان الفرنسي والاسباني مدافعهما عبر خليج (الحسيمة) على الريفيين ، كما تم الانزال الاسباني تحت مظلة جوية من الطائرات باصقة القنابل والغازات السامة ، فزحفت الجيوش الاسبانية نحو اكادير فسقطت بعد مقاومة لن تنسى ، واستمر تقدم الجيوش الفرنسية في الجنوب مستعملين الدبابات ، حتى التقت الجيوش الاسبانية والفرنسية عام ١٩٢٦ عبر بلاد الريف في اكثر من نقطة .

---

(١) فالعرف الريفي يقضي اذا وجدت قبيلة نفسها في نزاع مع قبيلة اخرى أقوى منها ، فان رجالها يأخذون ثورا الى اقرب واقوى قرية ويسلمون الثور الى فقيه القرية لينحره على باب المسجد لتساعدها في حربها ضد القبيلة الغازية .

وهذا ما فعله شيخ قبيلة بني زروال حينما اقتحمت الجيوش الفرنسية أراضيه وقتلت وشردت الريفيين . فاستجار بالخطابي مستعينا بالعرف القبلي الصارم .

وخلال هذا الزحف الفرنسي الاسباني الساحق لم يبق لدى الخطابي سوى خمس وعشرون محاربا عندما لجأ مع عائلته الى دار احد أشراف الريف فنصحه بان يسلم نفسه للفرنسيين ، عندها امتطى الخطابي صهوة جواده ليودع آخر من تبقى معه على قيد الحياة ، ويتجه الى مقر القائد الفرنسي ، ولما رآه الجنود الفرنسيون أدوا للبطولة والفروسية التحية العسكرية ، وسلم نفسه معلنا نهاية ثورة الريف[1] .

ثم نفت فرنسا الخطابي مع شقيقه وعائلتهما الى جزيرة (ربيو نيون) في المحيط الهندي وبقي هناك حتى عام ١٩٤٧ عندما طلب ان ينقل الى فرنسا كي يستطيع أولاده ان يواصلوا دراستهم فاستجابت فرنسا لطلبه .

عندها سافر الخطابي واهله على ظهر باخرة توقفت في ميناء عدن ، فاحتفى الوطنيون بالمجاهد العربي الكبير ، ثم طيروا برقية الى صحفي فلسطيني في مصر[2] يشعرونه بان الباخرة التي تعبر قناة السويس تقل الخطابي ، فابلغ الحكومة المصرية مضمون البرقية ، فوافقت على قبول البطل الخطابي كلاجئ سياسي .

وما ان توقفت الباخرة في ميناء بور سعيد حتى صعد اليها حاكم الميناء وبرفقته الحبيب بورقيبة وعدد من الوطنيين العرب المنفيين ورحبوا بالزعيم الريفي ودعوه واهله للنزول من الباخرة لمشاهدة معالم المدينة ثم توجهوا به الى القاهرة .

وبقي فيها مكرما محترما حتى عام ١٩٦٣ حيث وافاه الاجل اثر نوبة قلبية ، وعاد شقيقه مَحمد (بفتح الميم) من ليبيا الى المغرب بواسطة الاستاذ عبد الهادي التازي الذي كان يقوم بمهمة السفارة لبلاده بطرابلس ، وقد توفي السيد مَحمد بالرباط عام ١٩٦٧ ونقل جثمانه ليدفن في مدينة أكادير .

---

(١) قامت اسبانيا بحرق دار الخطابي في اكادير كي لا يصبح للمعجبين مزارا ولا يتخذ للبطولات رمزا .

(٢) هو المجاهد العربي الأستاذ محمد علي الطاهر وقد رأيته في بيروت عام ١٩٧١ حيث داره هناك ندوة للأدباء والفضلاء .

الدار البيضاء

كانت بداية محبتي للدار البيضاء (كازا بلانكا)[1] تطوي حادثا طريفا يسعدني أن أعيد سرده للقارئ .

والحادث بسيط عابر ، ذلك يوم كنت صبياً طموحاً أرتقي أول سلم التجارة المتواضعة ، حيث كان لي في الاربعينات محلٌ صغيرٌ في شارع الرشيد لا تزيد مساحته الكلية عن أربعة أمتار ولا تضم واجهة معرضه الخشبي غير بضع ساعات متباعدة هنا وهناك ، وطاولة صغيرة في جوف المحل ، أعالج عليها صناعة تصليح الساعات المشرفة ، كي أعيد اليها نبض الحياة (تيك تاك) وتعود عليّ بدراهم معدودات .

وعندما يأتي المساء كنت أغلق محلي واعبر الشارع علىٰ عجل لأندس في حافلة النقل التي تقلني وباقة من أقراني الىٰ ساحة (امام طه)[2] وكنا ننزل درجات سلم الزقاق المنحدر الىٰ حيث تستقر في منتصفه (مدرسة التفيض الأهلية) طموحاً لانهاء دراستنا الثانوية التي تؤهلنا للحياة الجامعية وما أعزها من أمنية ! !

اما الجانب الثالث بعد جانبي المهنة المشرفة ، والدراسة المسعدة – الذي كان يشغل بالي ، ويغمر خيالي العاطفي المثالي ، الذي كان يطبع جيلنا (الرومانتيكي) في الأربعينات ، لكثرة الكتب العربية العاطفية ، أو الاجنبية المترجمة عن الأدب الرومانسي ، مثل قصة (الآم فرتر) للاديب الفيلسوف الالماني (كوتيه) و (أنا كارنينا)

---

(١) سميت الدار البيضاء ، وتترجم باللغة الأسبانية (كازا بلانكا) ، لأنه كان فيها منزل فخم مطلي بالجص الأبيض ، ومشيد علىٰ رأس تل مرتفع عن سطح البحر ، لذا كان القباطنة يسترشدون به ، فعندما يقتربون من هذه المدينة ، يشيرون الىٰ تلك الدار ويقولون وصلنا (الدار البيضاء) وعندما تكررت التسمية أطلق الأسم علىٰ المدينة كلها .

(٢) ساحة إمام طه ، وتسمىٰ اليوم ساحة الشاعر الوطني معروف الرصافي ، حيث يشمخ في وسطها تمثاله البرنزي .

للفيلسوف الروسي (تولستوي) ، وكتب جبران خليل جبران (دمعة وإبتسامة) و (الأجنحة المتكسرة) وكان اكثرها تاثيراً علىٰ سلوكنا وأعمقها غوراً في نفوسنا ، هي المجموعة الكاملة لكتب (المنفلوطي) (العبرات) و (النظرات) و (الفضيلة) والشاعر (سيرانو) التي أضفت على صداقاتنا روح الفروسية ولونت علاقاتنا بالحب والعفة ، كالتي كان يتمثل بها عاشق بني عذرة (جميل بثينة) .

لذا كنا شباب ذلك العصر نفتش في مكتبات (سوق السراي) عن القصص العاطفية والمترجمات الرومانتيكية ، كما كنا نترقب اعلانات دور (السينما) علها تعلن عن عرض فلم عاطفي لقصة حب تكون نهاية بطلها الانتحار – علىٰ الأقل – كي يبرهن لنا علىٰ عظيم حبه وسمو خلقه ، امثال (قيس وليلىٰ) ، و (روميو وجوليت) .

تلك الكتب كانت تغذي عقولنا وكانت هذه الافلام تدغدغ أحلامنا ، فبات جيلنا يعاني الحرمان حتى كثرت مشاكل الشباب وتعقدت نفوسهم ، لأبتعاد المر عن الحياة الاجتماعية الواعية في الوسط العراقي القديم .

ففي عز شبابنا كانت الفتاة العراقية في اول مراحل تطورها الاجتماعي والثقافي يوم بدأت بعض العوائل تسمح لبناتها بأتمام تحصيلهن الدراسي ، بينما كنا نشاه جلهن ما زلن يتمسكن بالعباءة السوداء – التي زال أثرها وتأثيرها اليوم الىٰ غير رجعة – لتصون عصمتهن . . ! وتغطي مفاتن أجسامهن . .

وبينما كنت ومجموعة من صحبي نجتاز منطقة (باب الشرقي) لنتجه صوب (سينما غازي) إذا بلافتاتها تعلن بأعلىٰ واجهتها المشرقة عن عرض فلم جديد باسم (كازا بلانكا) ولم تدهشنا الدار البيضاء ، بقدر ما الهبت عواطفنا الممثلة السويدية الحسناء (انكريد بريكمان) وادهشنا الممثل (همفري بوكارت) الذي يلتقي بالسيدة الجميلة انكريد في حانة بمدينة (الدار البيضاء) ومنها استمد الفلم اسمه ، وهما يستمعان الىٰ عازف زنجي بارع يعزف قطعة راقصة زنجية ، ويغني بصوته المميز أغنية شجية ، فتنجذب انكريد نحو همفري ، ثم يتحادثان ويتعاطفان ، بنفس الرغبة والرهبة رغبة الحب ورهبة الموقف ، والغريب أن الزوج كان حاضراً هذا الموقف الغرامي العنيف ، والاغرب من ذلك أنه كان متحمساً لهذه العلاقة الغريبة

– علماً بان الزوج آخر من يعلم – عندها يرحل الزوج بها بعيداً عن الدار البيضاء .
وفي الليل – وليل العاشقين طويل – يأتي همفري وحده الى نفس الحانة ، ويطلب من العازف أن يعزف له نفس اللحن وان يغني تلك الأغنية ، فيعزفها الفنان الظريف ويغني أغنيته ، ولكن لمن ، لهمغري بوكارت ، له وحده فقط . . !
ذلك الفلم المؤثر بشخصيتي بطليه المدهشين اللذين جعلاني أصبو الىٰ رؤية تلك المدينة الحالمة (الدار البيضاء) بمينائها الاطلسي الآسر وليلها المغربي الساحر ، علّي أعثر هناك علىٰ فتاة أحلامي البيضاء أو السمراء ، فكلهن في الاغراء سواء ، ويومها كنا أبناء جيلنا محرومين من عطف النساء وعطر الليالي .
ولم اكن أدري أن حلمي سيتحقق في السبعينات ، وقد تخطيت مرحلة الكهولة الى عتبة الشيخوخة ، وبرغم ذلك فقد شعرت ان أحلامي تحلق معي وأماني تطير بي حينما حلقت بنا الطائرة من الجزائر لتقلنا وزوجتي الىٰ مدينة الدار البيضاء ، فمازالت الروح طرية خضراء .

وبعد طيران مخيف زعزع أحلامي ، شعرت بالطائرة تهبط في المطار بسلام بعد أن صارعت الغيوم المتلبدة وعاندت الريح العاتية وقاومت المطر الغزير .
ولما وضعت حقائبنا بسيارة أجرة قديمة وقد كان كل شيء فيها يصرخ الا الهورن فقد كان صامتاً وكنت وزوجتي متعبين من الجو المكفهر والأنتظار الممل ، فسارت بنا السيارة لتقطع الكيلومترات الخمسة والثلاثين بين المطار والدار ، وكان الليل عاصفاً موحشاً والطريق طويلاً مظلماً ، فإذا بالسائق ينادي علينا لطول صمتنا المطبق ليشير الىٰ شارع الجيش الملكي ، ولم نفهم ماذا يعني ، ثم عقب . . . هنا يستقر (فندق مرحبا) فحمدت الله علىٰ أن هداني أولا لتوحيده ، وهداني أن أحجز في الفندق ثانياً فاندفعت نحو غرفتي ثم إندسست في الفراش ونمت ككومة مهملة لا حراك فيها حتى الصباح .
وعند الصباح سرت في الشوارع الرحبة بأرصفتها النظيفة المشجرة ، وإتجهت الىٰ صوب المرفأ البديع الذي يستقر بهدوء علىٰ ساحل الأطلسي بطمأنينة منذ الآف السنين ، وفي مسيرتي الطويلة شاهدت أحياء تكتظ بالسكان الطيبين الكادحين ،

تجار وكسبة وموظفين وحرفيين ، كما شاهدت بناية قديمة ذات عدة طوابق معظم سكانها خليط من الشعب والأجانب ، الأجانب الذين جاء بهم الأستعمار وشجعهم علىٰ البقاء ليستثمر جهودهم ويستغل خيرات البلاد ، لذا منحهم حقوقاً لم يحصل عليها أبناء البلاد الشرعيون أنفسهم . . ! وجلهم متفقون علىٰ أن يستنزفوا ضرعي البقرة الحلوب . . ! وتستطيع أن تتعرف عليهم فاذا ما تكلمت مع أحدهم رأيت اللكنة الفرنسية أو الأسبانية ، حتى الباعة في المحلات التجارية تاثروا بهم فتسمعهم يساومونك بلغة عربية ذات رطانة فرنسية ، ويتجلىٰ ذلك في الأحياء الأجنبية . وجل الاجانب يستثمرون المهن ذات العوائد الغزيرة والتي تحتاج الىٰ رأس مال كبير ، تساندهم البيوتات المالية ، أما ابن البلاد فيمتهن المهن المتواضعة الشحيحة المورد ، فتراه أما كناس شوارع او حارس عمارة ، أو صباغاً للأحذية ، او ندلاً في مقهى ، او عاملاً في مصنع أو متجر .

وبفضل الاستقلال الوطني حصل الكثير من الانفتاح والانفراج أمام المواطن الصالح ، فعاد قسم كبير منهم يمتهنون المهن المحترمة كالتجارة والصناعة والزراعة ويشغلون وظائف وطنية تنطوي الخدمة فيها علىٰ تضحية مجدية ، كالتدريس والقضاء والخدمة العسكرية وشتىٰ الوظائف الأخرىٰ التي كان يصعب على المغربي أن يحصل عليها حتى لو درس وتخصص ، طالما كان معارضاً قلبا أو قالبا للاحتلال والاستغلال . . !

ولتعلقي بأهل الدار وحبي لشعبها الدمث الخلق المضياف ، فقد طال بقائي فيها ، ورحت أجتمع بهم في محلاتهم أو في بيوتهم ، إذ كنت أدعىٰ عند بعض من زارني ببغداد وتعرفت عليه بواسطة نخبة من المعارف او الاصدقاء ، وفي جلسة (تاي أخضر) مغربية حدثني والد صديقي علاّل الذي كان يدرس الحقوق في بغداد ، ووالد علال شيخ وقور بهي الطلعة رضي الخلق وسيم الخلقة ، يرتدي سروالاً مغربياً فضفاضاً غير انه يتبرنط ببرنيطة فرنسية ، ومثل هذا المزيج العجيب من الحضارتين العربية والفرنسية تجده منتشراً بين العوائل وتشاهده في الطرقات والمحلات ، أقول حدثني ذلك الشيخ الطيب عندما بت أتساءل عن سر تسمية الدار البيضاء ، فقال

بعد أن إعتدل في جلسته واستبشر بسؤالي عن مدينته التي عايشها وعايشته ، وصانعها وصانعته ، فقال يُحكى – والله أعلم – أن تاجراً تونسياً إسمه (سي علال القيرواني) قد هاجر من مدينته المقدسة قيروان متوجهاً الىٰ (أنفا) وكان ذلك قبل ثلاثة قرون تقريباً ، وقد إتخذ من موقع المدينة الحالي مقراً له ، كي يدير أعماله التجارية الواسعة ، ويعرض بضاعته المستوردة من مختلف الاقطار والامصار .

وقالوا – والعهدة علىٰ الراوي – وكأن الشيخ يخشىٰ أن نطعن بصحة روايته أو نعترض سير حديثه الشيق ، لذا كان يتعكز على هذه الجمل الحكيمة المعترضة ، إن زوجة القيرواني ، كانت سيدة فاضلة مضيافة تساعد زوجها الطيب المكدود علىٰ إدارة تجارته الواسعة الانتشار وتعينه في متجره الكبير ، وبقدر ما كانت جميلة الخلق كانت جميلة الخلقة أيضاً ، فابتسامتها مشرقة ووجهها صبوح ، وكان إسمها (لالا البيضاء) أي (السيدة البيضاء) لذا كان الزبائن يتوافدون علىٰ متجر (سي علاّل) وجلهم بل كلهم نسوا او تناسوا إسمه (سي علال) حيث طغت عليه إبتسامة (السيدة البيضاء) وحجبه خلقها الرضي ، فأضحىٰ الجميع يسمونه (دار البيضاء) وعندما تأتي بضاعة جديدة يتساءل البعض وتتهامس العوائل هل ذهبت الى محلات (الدار البيضاء) أو هل أعجبتك بضاعة (دار البيضاء) وبمثل هذه الكلمات المحببة راجت تجارته واخذت تتسع شهرة (دار البيضاء) التجارية ، عندها راح سي علال يوسع محلاته التجارية فيضيف اليها متجراً بعد آخر حتى باتت المدينة كلها تلهج بأسم متجره الذي طغىٰ عليه اسم زوجته (لالا البيضاء) ومن تلك الشهرة الواسعة – يقال – أن المدينة كلها استمدت ذلك الاسم المحبب ، حيث راح الناس كل الناس من مواطنين وسياح يطلقون علىٰ المدينة (الدار البيضاء) .

ولا تستغرب إذا ما علمت بأن الدار البيضاء هي للمغرب العاصمة الاقتصادية ، فهي قد إشتهرت منذ القديم بسعة تجارتها مع الدول الاوربية وبالاخص مع فرنسا وانكلترة والبرتغال وما زالت الحركة التجارية نشطة في الدار لذا تجد الشركات الكبرىٰ تركز لافتاتها في أضخم العمارات معلنةً عن ممارستها الوساطة التجارية المشروعة وغير المشروعة ، ومما يضاعف أهميتها الاقتصادية

إنفرادها بمينائها الأستراتيجي وبموقعه الجغرافي الهام حيث يستقر علىٰ الساحل الاطلسي ، ويطل على سواحل الدار البيضاء بأمتداد طبيعي بديع يتجاوز الاثني عشر كيلو مترا ، وكلها مستغلة إستغلالا إقتصاديا دقيقا ، حيث تنتشر المسابح الساحلية وتنتثر (الشاليهات) وتنظم مختلف الالعاب المسلية لانعاش الحركة الرياضية والسياحية ، إضافة الى حركة الميناء النشطة ، الذي يسافر منه ربع مليون سائح ، ويزوره نصف مليون سفينة سنويا ، وتستطيع ان ترسو فيه اكبر البواخر العالمية ، وذلك لعمق مياهه ، ولتوفر أحدث الوسائل التكنيكية العلمية الكفيلة بتنظيم خدماته الضرورية بجدية ، وسرعة ودقة ، في مجالي التجارة والسياحة على حد سواء .

وسبب تمركز الدار التجاري والصناعي يعود الىٰ موقعها الجغرافي الطبيعي الذي تميزت به ، والذي حرّك المطامع السياسية الأوربية ، التي حتمت علىٰ اختيارها لتصبح الميناء الاول لدولة المغرب .

فقصة أهمية الدار كقصة أي مدينة مغربية عربية ، إذ كانت صغيرة تضم عدداً قليلا من أبنائها ، ثم شجعت علىٰ الهجرة اليها الدول الأوربية الطامعة بخيراتها رعاياها فتغلغلوا فيها وفتحوا المكاتب والمتاجر وتوسعت الشوارع وشيدت الفنادق وبُنيت الدور والعمارات والقصور ، كي تستوعب غزوهم التجاري والصناعي بل وحتى الزراعي .

ولذا أصبح من الطبيعي أن يتقاطر المواطنون عليها عندما طرق سمعهم سعة نشاطها الاقتصادي ، وتضاعف خيراتها المعاشية ، وتصاعد أرقامها في عالم المال والتجارة .

فنزح الىٰ الدار البيضاء الكثير من أبنائها من المدن والقرىٰ والارياف ، من مدينة فاس وطنجة وتطوان ، ففتحوا فيها العديد من المحلات التجارية وشيدوا مختلف المعامل الصناعية .

عندها ضاقت المدينة بسكانها الجدد الذين زادوا على المليون نسمة لذا بدأوا بالبناء خارج سورها القديم في عجلة وارتجال ، ليتم التشييد بدون تخطيط مسبق ولا

تصميم مدروس ، فإذا ما نصب أحد الصناعيين معملا نثرت حوله المنازل ليسكنها الموظفون والعمال ومن حولها الدكاكين والاسواق المتواضعة ، وعندها يتكون حي جديد سرعان ما يأخذ بالتوسع كلما زاد عدد المعامل وتضاعف عدد المهاجرين من الضواحي ، ولذا سادت المدينة حركة عمرانية شاملة .

وفي اليوم الثاني وانا أمتع العين والنفس بالتجوال لاحظت عند الصباح الباكر حركة جادة في الطرقات والدروب ، فالعمال ينسابون باعداد كبيرة والموظفون يغادرون المدينة القديمة قاصدين المنطقة الحديثة منها حيث مقرات أعمالهم ووظائفهم .

وقد راقني شوارعها الفسيحة ، باشجارها المتناسقة على الرصيف النظيف حيث يزدحم عليه السابلة خشية رعونة السيارات المنطلقة بسرعة وخفة .

ولعل من العجيب ما لاحظته من أن المدينة البيضاء ليست بيضاء – وقد ندعو الاعمىٰ بصيرا – فهي مطلية بأصباغ غريبة الالوان ، وهندستها المعمارية تتارجح بين طابعين غريبين ، الافرنسي والامريكي اللذين طغيا على الطابع العربي المميز بالريازة المغربية الاندلسية ، إذ اختفىٰ أو كاد ، والغريب أن حتى أبن البلد المواطن الأصيل ، شملته هذه البدعة من الخلط العجيب ، فهو الآن يرتدي السروال المغربي الفضفاض وتعلو فروة رأسه قبعة افرنجية من اللباد ، والمرأة أيضا أصابها مثل هذا الهوس من الاختلاط ، فهي تلبس (الحايك) وتنتعل أحدث حذاء إيطالي وتتزين بآخر مكياج فرنسي وأبدع تقليعة تسريحة لقص الشعر عند (كوافور) أوربي ، يحدثك بلغة هي مزيج من رطانة فرنسية ولكنة عربية ، إنه وامثالهم يطالعون الصحف والمجلات وحتى الكتب باللغة الفرنسية السائدة ، فهي طاغية علىٰ الاسبانية ، وحتى على اللغة العربية للاسف الشديد . بل حتى المدينة القديمة فقدت طابعها العربي المميز ، وذلك عندما سكنها الاوربيون ، إذ راح كل منهم يجدد عمارتها فيضيف ما ترتاح اليه نفسه ، ويلغي ما يتنافر وطبعه ، وبذلك المزج الغريب مسخت معالم العمارة العربية الاسلامية ، فأمست لا هي عربية ولا هي غربية .

ولعل مما يتنافر مع الذوق الرفيع ما تشاهد هنا من بائع للأطعمة الشعبية الشهية وقد إرتفعت فوق دكانه لافتة تعلن عن اكلته العربية باللغة الفرنسية . . !

ومع تفشي هذه التناقضات ، فإن مما يسعد النفس أن تأخذ هذه الحال اليوم بالزوال شيئا فشيئا ، بعد أن نال المغرب العربي الاستقلال الوطني .



فتاة ظريفة تسقيك الشاي علىٰ الطريقة المغربية المغربة

تأريخ أنفا
قديماً وحديثاً

انها اليوم أجمل حي في الدار البيضاء بعد أن كانت أشهر مدينة في المغرب (إذ إشتهرت بمينائها (أنفا) الذي كانت السفن ترسو فيه وهي آتية من فرنسا وأنكلترة والبرتغال تجلب البضائع الأوروبية أو تحمل المحصولات الزراعية كالقمح والشعير.

وقد بنيت (دار البيضاء) علىٰ أنقاض (مدينة أنفا) القديمة بعد أن تعرضت للدمار والخراب ، وذلك على أثر حربها مع البرتغال عام ١٤٦٨م فقد جهز ملك البرتغال اسطولا ضخما هاجم به مدينة أنفا وقصفها قصفاً شديداً قلب عاليها سافلها وتركها أثراً بعد عين .

وبعد سنين طوال من الحرمان والأهمال جاء اليها (السلطان مولاي محمد) عام ١٧٧٠م فوجدها وقد أمست قرية صغيرة تقوم بدورها كمحطة بريد بين فاس ومراكش ، فقام بتشييدها ثانية وأعاد اليها الحياة ، وأطلق عليها إسم (الدار البيضاء) .

وفي بداية القرن العشرين بدت السحب السياسية السوداء تتجمع في سماء الدار كما بدأ المستعمرون يحيكون المؤامرات في السر والعلن ، إذ إتفقت فرنسا مع المانيا على أن تتنازل عن قسم من مستعمراتها في (الكونغو) كما تعهدت لانكلترة بأنها ستلتزم جانب الحياد أذا ما إحتلت مصر.

وكان هذا الاتفاق بمثابة عربون دفعته فرنسا مقدماً لتلك الدولتين الاستعماريتين ، لكي تطلقا لها العنان في احتلال المغرب العزيز الذي بات ضعيفا بسبب إندلاع الحرب الأهلية نتيجة لتنازع الأخوين الشريفين عبد العزيز وعبد الحفيظ علىٰ السلطة الدنيوية (ملعون أبو الدنيا) . . . كما يقولها إخواننا المصريون . . فاستغلت فرنسا الموقف المتأزم فرصة سانحة ، وإتخذت من قيام القبائل في الدار

البيضاء بمظاهرة شعبية عام ١٩٠٧م إحتجاجاً على مرور سكة حديد بجوار قبر أحد الأولياء الصالحين - وما اكثر الأولياء في المغرب ! - ذريعة للتدخل فقتل ثلاثة من الافرنسيين ومثلهم من كل من الاسبانيين والايطاليين ، فكانت فدية أولئك التسعة أن تحتل فرنسا بلاد المغرب كلها . . ، فأرسلت مدمرتها الحربية لتطلق نيران مدافعها علىٰ المدينة فدمرتها تدميراً كاملاً ، ثم أنزلت جنودها كي يحتلوا المغرب جميعه بعد مقاومة وطنية مشرفة دامت عشرين عاماً .

وعندما رأت أسبانيا الفرصة متاحة لها لاحتلال الجزء الاعلىٰ من المغرب قامت بفتح جبهة حرب ثانية من الشمال فاحتلته أيضاً .

وهكذا تتكرر حكاية القوي والضعيف في كل زمان ومكان لتصح وعلىٰ طول المدىٰ ، مقوله الشاعر العراقي :

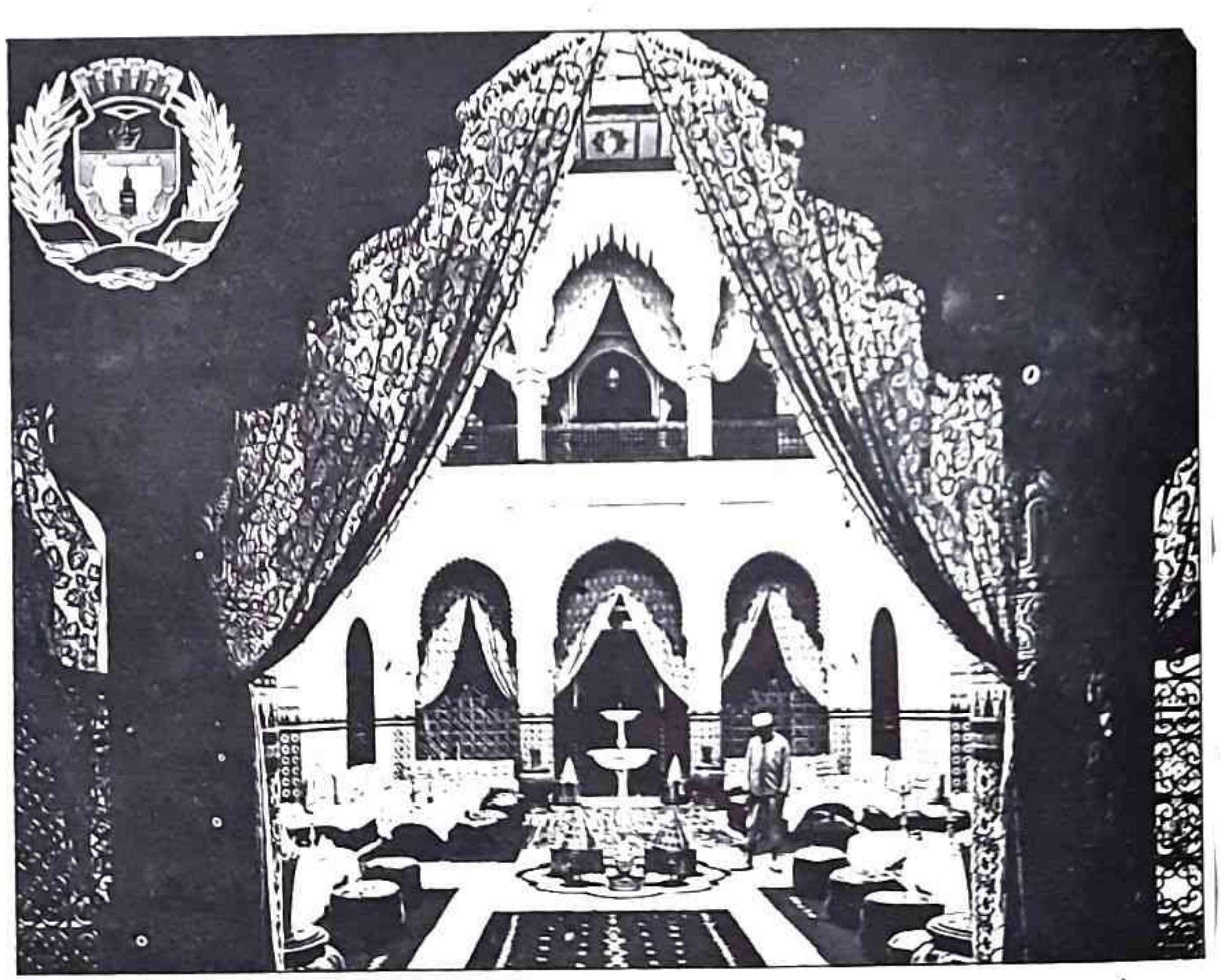
. النواميس قضت الا تعيش الضعفاء

إن من كان ضعيفا أكلته الاقوياء

فإذا قدر لك أن تزور (أنفا) فستجد نفسك تسير في موكب جمالي خطته ريشة فنان بارع ، وزوقته دور قديمة ذات تصاميم هندسية متباينة ليس بينها انسجام ، إذ لا تناسق بين دار ودار ولا تشابه بين بناء وبناء ، وهذا التناقض الهندسي الغريب وذاك التنافر المعماري العجيب أضفيا على حي (أنفا) رونقاً وجمالاً ، وليس ذلك بالشيْ المستبعد فقد قيل قديما (والضد يظهر حسنه الضد) .

ومما يبعث في النفس المسرة وفي العين البهجة أن هذه الدور تستقر وسط مهرجان حاشد من الحدائق النضرة باشجارها الباسقة المثمرة وساحات رحبة وشوارع عريضة نظيفة .

ويمتد حي (أنفا) بمحاذاة ساحل المحيط الأطلسي ، حيث يصافحك جمال الساحل الرملي ويدهشك البحر الفيروزي بأفقه الممتد الىٰ مالا نهاية ، وبلونه المقتول بالصبغة اللازوردية المحببة .



مطعم على الطريقة المغربية في مدينة الدار البيضاء

ولروعة المنطقة وجمالها الطبيعي الذي إنفرد به حي (أنفا) أصبح مقراً للطبقة الارستقراطية المنعمة كما إختارها (روز فلت) و (تشرشل) لتكون مقراً لأجتماعهما عام ١٩٤٣ . وأنت ما تكاد تتجول في شارع الكورنيش حتى تواجهك أحواض السباحة المنتشرة على جهتي تلال (أنفا) الخضراء فتمشي ومازلت تمشي . . . وأنت مسحور لا تدري أأنت حقاً تسير أم أنت أسير . هذا الجمال الذي يشدك اليه شداً محبباً فيحرك قدميك بحيوية متدفقة ونشوة غامرة ، فهذا النسيم الرخي الذي يلامس وجه الغواني بلطف ويداعب خصلات شعرهن بظرف كيف لا يحرك دمك قبل قدمك . . ؟ !

وتمشي حتىٰ تصل الىٰ صخرة كبيرة أستقرت في قلب البحر ، وهي تشابه الىٰ حد كبير (صخرة الروشة)في بيروت ، غير أن هذه اكثر قدسية . . أما تلك فهي اكثر جمالاً (فصخرة الروشة) الجميلة المعروفة بصخرة الانتحار (ومن الحسن ما قتل) لكثرة ما لجأ اليها الخائبون في دنيا الحب أو اليائسون من مسؤليات الحياة ، فأنهوا من عليائها المأساة .

أما (صخرة أنفا) فلها قدسيتها إذ أقيم عليها ضريح ولي من أولياء الله الصالحين (سيدي عبد الرحمن) لذا أضحت ملجأً للفقراء وملاذاً للضعفاء ، فهم ينتظرون حلول (الجزر) حيث ينحسر الماء عن الصخرة ، عندها يستطيعون أن يسيروا علىٰ الشاطئ الرملي الندي ، ليتوجهوا الىٰ الولي الصالح متبركين داعين عسىٰ أن يصلح حالهم ، بحق وجاهته عند ربه الرحمن الرحيم .

ورغبت أن أقف هنا منتظراً مع المنتظرين – وقد عودتني والدتي أن أطوف معها في أضرحة الأئمة ومزارات الأولياء بل وحتىٰ العلماء والفقهاء – الذين أضحت لهم منزلة الأولياء لدىٰ العامة في بغداد (أمثال الشيخ محمد الخلاني) و (حسين بن روح) و (السيد أدريس) و (بنات الحسن) أقول أنتظرت مع المنتظرين حتى جاءت ساعة الجزر وأنحسر ماء البحر فسرت مع السائرين متوجهاً نحو الصخرة ، فشاهدت عدة أضرحة وعدداً من القبور تحيط بضريح سيدي عبد الرحمن ، وقد ربط الزائرون بشباكه الحديدي قطعاً من الأقمشة الخضراء والسوداء وكثيراً من الخيوط قطنية وحريرية ، كي تكون شاهداً عند سيدي علىٰ حضورهم في هذا المقام لعل صاحبه أن يشفع لهم عند الغفور الرحيم .

إلى الرباط العاصمة[1]

طاب لي ولزوجتي أن نأخذ (الأوتوبيس) الذي يسير بأنتظام دقيق بين المدن المغربية ، فقطعنا الطريق بين الدار البيضاء والرباط بمتعة وراحة . فالمناظر جذابة والطبيعة خلابة تسر الناظرين .

فالأرض ساعة تكون ساحلية وأخرى تكون جبلية والتربة حمراء كأنها غمرت بتراب الحناء وبين حين وآخر تطل علينا المزارع والبساتين الخضراء ، وتنتشر هنا وهناك الزهور الجبلية بنفسجية زاهية كأنها حجر (الأمتن) النادر الثمين .

والبحر بين الفينة والفينة يطل علينا بساحله الفضي والطريق رغم طوله (٩٢) كيلومترا إلا أنه عريض مزفت ومريح ومشجر بتنسيق بديع .

وبينما سيارة الأوتوبيس تصارع الطريق لتبلغ بنا إلى الرباط ، حلقت بمخيلتي إلى تاريخ المغرب المليئ بالاحداث الجسام ، فتخيلت كم اجتازت هذه الطرقات قوافل وقوافل ، وكم سارت عليها مواكب التجار ، وأنطلقت منها حوافر خيول الفاتحين تضرب الارض بعزيمة وقوة وكيف وطأتها جيوش الطامعين .

وقف بنا سائق الأوتوبيس عند وادي (نفيفخ) بعد أن اجتزنا قنطرة صغيرة قصيرة ينساب تحتها ماء الوادي بهدوء بلونه الداكن الغريني ، ثم أطلت علينا التلول المنتشرة هنا وهناك والمزدانة بغابات تكاثفت حولها الاشجار ، وصدحت علىٰ افنانها مختلف الأطيار بالوانها واصنافها المدهشة واستمرت سيارتنا تصارع الطريق لترتقي أعالي التلال فتزداد المناظر روعة وبهجة ، ثم انحدرت بنا الى الوديان فاخذنا نرىٰ المراعي الخضراء تسرح فيها أسراب من الاغنام والأبقار ، وشاهدنا الخيول منطلقة تسرح

---

(١) الرباط ، في الأصل المكان الذي يرابط فيه الجيش وقد كانت المدينة فعلاً رباطا لدولة الموحدين . . . وقد كانت تحمل عند بداية بنائها بتاريخ (٥٤٥) اسم (المهدية) راجع كتاب تاريخ المنّ بالامامة لابن صاحب الصلاة تحقيق د . عبد الهادي التازي ، طبعة بيروت ١٩٦٤ ص ٤٤٦ - ٤٤٨ .

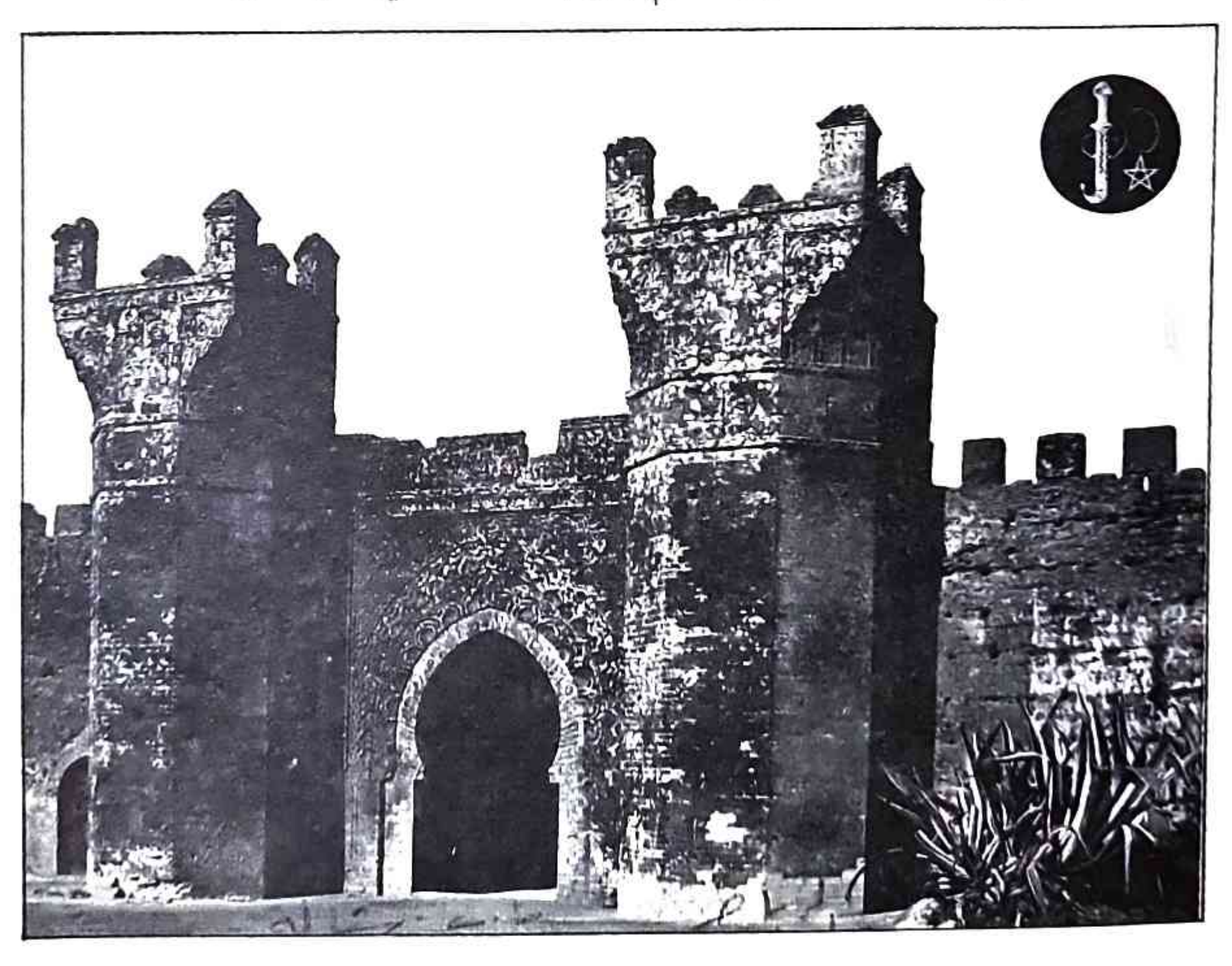
وتمرح فلا سروج ولا فرسان علىٰ ظهورها الفولاذية ، إذ لا فتوحات وانتصارات ، وحتىٰ الجمال والنوق العتاق معطلة منطلقة تتنقل في المراعي بحرية ، فلا بضائع تجارية تحملها ، ولا هدايا من جوار وماس وذهب وحرائر ونوادر ، تساق الى خليفة الشام من غنائم الفتوحات .

منظر لمدينة الرباط



وبعد سفرة مريحة قطعنا طريقها الجميل بقناطره وقنواته وحقوله وبساتينه وكان الفلاحون ينتشرون هنا وهناك ببرانصهم المغربية وكلابياتهم البلدية تساندهم في عملهم الدؤب نساؤهم واطفالهم ، فتراهم جميعا راكعين الىٰ الأرض ينشرون البذور من أخاديدها أو يغرسون الشجر في جوفها وكأنهم يصلون لله ليبارك زرعهم وغرسهم ، والاطفال يقودون أبقارهم واغنامهم نحو المراعي ، ويركبون الحمير وخلفهم كلابهم الأمينة المخلصة .

باب شالة – للسور القديم بابراجه الشامخة في مدينة الرباط



والآن وقد إقتربنا من ساحل البحر رأينا أمواجه القطنية تصفع الشاطئ فتتناثر في الفضاء وكأنها إنطلقت من ذبذبات وتر المنداف على أثر ضرباته المهنية المتقنة ، ذات النغم الوتري السحري المحبب .

واخذنا نشاهد المسابح (بشاليهاتها) المتعددة ، ينتشر فيها الناس يسبحون ويمرحون علىٰ الساحل الفضي المشرق بنور الشمس التي ترسل خيوطها الحريرية الدافئة فتشيع الدفء والحيوية والنشاط .

وطيلة رحلتنا بين الدار والرباط لم تفارقنا هذه المناظر الخلابة ، حتى وصولنا الىٰ مشارف الرباط ، فإذا بباب ضخمة عالية تشمخ في قلب سورها القديم الذي تغرس فيه عدة أبواب خشبية محكمة وتثبت في اعاليه النوافذ المزخرفة فدخلنا باب مدينة الرباط متوجهين نحو فندقنا (تورحسان) ودخلنا مستبشرين الى غرفتنا التي تنتظر قدومنا لتمسح بما توفر فيها من وسائل الراحة ، عنا وعثاء السفر .

اليوم تعرفت
علىٰ الرباط

الرباط : وتسمىٰ أيضاً (رباط الفتح) كما تدعىٰ (رباط سلا) وذلك تمييزاً لها عن (رباط ماسة) التي تستقر علىٰ الشاطئ الجنوبي من المغرب ، وغيرها من المدن المغربية التي تسمىٰ بهذا الاسم الاسلامي العسكري .

والرباط مدينة جديدة بناها الموحدون منذ نحو سبعمائة سنة لتكون معسكراً يتجمع فيه جنود المسلمين قبل أن تنطلق للجهاد لمحاربة الأسبان للدفاع عن البلدان الاسلامية لتشد أزرها وتضاعف قوتها في التضحية والصمود .

والرباط مدينة جميلة الموقع فقد شيدت على الضفة الجنوبية اليمنىٰ من نهر أبي (رقراق) مقابل مدينة (سلا) ذات الموقع النهري الخلاب .

فالرباط كسائر المدن المغربية التي زرتها تقسم الى قسمين متباينين تباينا إقتصاديا وثقافيا واجتماعيا واضحاً ، فالمدينة القديمة يحيط بها سور قديم متصدع الأركان على شيئ من الضخامة والارتفاع يحنو على بيوت متزاحمة ومتراصة بعضها ببعض ، حتى لتكاد شناشيلها وشبابيكها تلامس كل منها الاخرىٰ تحف بها طرقات ضيقة وأزقة متعرجة .

ومما يثير الدهشة أن البيوتات المغربية القديمة قميئة المنظر من الخارج إذ أنها مستورة بجدار لا تنفرج فيه ضلفتا الشبابيك ولا تجد فيها حتى فرجة يتسلل منها النور والهواء ، سوىٰ فتحة الباب التي تنفرج صفحتها على دهليز طويل مظلم ، ولكنك إذا ما إجتزت الدهليز عندها تجد نفسك أمام نموذج مصغر لقصر الحمراء ، باحة مكشوفة الى وجه السماء ، تحيط بها غرف تحرسها الاعمدة الرشيقة القوام البديعة القواعد والتيجان ، وأكاد أقول انها من صنع الجان ، فانا امام بناء هو تحفة من التحف وطرفة من الطرف ، ثم تطوف في غرف الدار فترىٰ انامل الفنانين قد لعبت على كل آجرة من آجره خطوطا والوانا تكاد تذهب باللب وتخطف الأبصار .

وإذا ما دخلت داراً أهلها على شيء من سعة الرزق تجد نفسك وأنت في قصر من القصور الرومانتيكية الخيالية التي قرأت عنها في قصص (الف ليلة وليلة) البغدادية .

ولكن رغم سقم هذه الهندسة القديمة التي تحرم البيوت والدور القديمة وحتى الطرق والازقة الضيقة من النور والهواء ، الا أنها نظيفة أنيقة ترتاح لها العين والنفس ، لأن الشعب المغربي شعب ظريف نظيف .

وما أقل ما يستطيع السائح أن يتجول في حارات وازقة المدن المغربية القديمة ، ويسير في منعطفاتها وشعبها المغلقة ، فإذا قدر له ودخلها فما أصعب أن يهتدي الى الخروج منها بلا مرشد أو رفيق طريق .

وقد فطن الثوار الوطنيون الى ذلك فكانوا يترقبون الخائنين من الأجانب والمواطنين المرتشين حتى إذا ما دخلوا الأزقة الضيقة المتفرعة داهموهم واغتالوهم فتضيع دماؤهم على المحققين والحكام المشحونين حنقاً وغيظاً على الوطنيين الثائرين .

وكم مرة حاول القواد الفرنسيون أن يرسلوا حراسهم وجنودهم لتلك الأحياء الوطنية القديمة ، ليطوفوا في أزقتها ويحموا البيوتات المتعاونة معهم فيرصدهم الوطنيون وينقضوا عليهم ، وتضيع آثارهم كما ضاعت آثار دماء الخائنين قبلهم ، فذهبوا غير مأسوف عليهم .

أما المدينة (الرباط الحديثة) فهي لا تختلف كثيراً عن المدن الغربية الأوربية في شيء ، فمن عمارات شامخة الى محلات واجهاتها أنيقة الى مكاتب تحيط بها شوارع عريضة بأرصفتها المشجرة الزاهية بالاشجار الخضراء ، وساحاتها الرحبة ، وقصورها الفخمة التي يعيش مالكوها عيشة بذخ وترف .

ولكثرة تعلقي بالرباط وطول تجوالي بها ، علمت أنها تتألف من أربعة أقسام ضخام .

١ — القصور الملكية : وتستقر وراء السور وهي مدينة قائمة بذاتها ، تتوسط الدور الخاصة بالحاشية الملكية ساحة تتسع لعدة الآف ، معدة للمناسبات العامة

والأعياد ويتوسط الساحة مسجد الملك الذي تقام فيه صلاة الجمعة ، وبالقرب منه مدرسة خاصة بالأمراء .

٢ - اكدال : وهي عبارة عن حدائق نثرت فيها الفيلات الجميلة ، وتنتشر فيها الحدائق والساحات العامة ، ويعتبر هذا القسم من الرباط مدينة المدارس والالعاب الرياضية .

٣ - (الريزيدانص) : وهذا القسم هو مدينة الأعمال ، وفيه أهم الشوارع القائمة علىٰ جانبيها أهم المحلات التجارية والشركات ومكاتب النقل الجوي والبحري ، والسفارات ، والفنادق ولذا تنتشر فيه المقاهي الشعبية والاوربية ، والملاهي الليلية .

٤ - السويس : وهي عبارة عن غابة من الحدائق والبساتين ، منسقة بتخطيط عجيب ، تشمخ في أواسطها القصور والدور والفيلات الجميلة .

فإذا ما أسعفك الحظ وزرت الرباط ستجد نفسك تتجول بين هذه الرياض الأربع وستشعر وكأنك تتجول في حدائق معطرة الأجواء أزهاراً ، دانية القطوف أثماراً ، ويحضرني هذان البيتان الطريفان للشاعر العربي يتغنىٰ بجمال المدن المغربية مصوراً مدينة الرباط واسطة العقد .

إذا إفتخرت مكناس بالماء والهوا وفاس بواديها وبالعلم والمجد
ومراكش بالجد والجود والجدا فان رباط الفتح واسطة العقد



من اليسار الى اليمين في داري احتفاء بقدوم الدكتور عبد الهادي التازي لبلده الثاني بغداد

١ - المرحوم عبد المنعم الجادر طيب الله ثراه
٢ - الدكتور عبد الهادي التازي
٣ - الدكتور عبد اللطيف حمزة
٤ - الاستاذ جعفر الخليلي
٥ - الاخ فخري جواد
٦ - ناجي جواد

جولة في السوق المغربي

مدينة الرباط مدينة صغيرة جميلة تحنو على نصف مليون نسمة شوارعها رحبة ومتاجرها عامرة وبيوتاتها أنيقة ، تجولت فيها وصاحب لي تربطني به وشائج عائلية وروابط أخوية ، إنتهت جولتنا في العاصمة الرحبة في السوق القديم وهو يشبه (سوق المدرسة المستنصرية) ببغداد (وسوق الحميدية) بالشام ، أو (خان الخليلي) في مصر ، و (سوق جامع الزيتونة) في تونس ، وخلال تجوالي لاحظت أن في منعطف من السوق يربض جامع قديم تصدعت أركانه للأهمال الذي عاشه سنين طويلة ، ودخلته لاطلع على الفن المعماري المغربي البديع ، وخرجت منه والحسرة تعصرني لهذا النسيان وذاك الأهمال اللذين منيت بهما الكثير من قبل هذه الآثار القيمة .

وواصلنا جولتنا في السوق القديم ،.فأدهشتني معروضاته الشعبية المختلفة من منسوجات مطرزة الى صناعات خشبية مزخرفة وخزفيات منقوشة من قلل ومواعين ومزهريات ومنسوجات مطرزة بالوانها الزاهية من قفطانات حريرية وخمارات بدوية وصناعات جلدية متقنة الصنع من حقائب وكمبات ومحفظات جيبية مذهبة وأحذية بألوانها الزاهية صفراء وحمراء وبيضاء وسوداء ، فراق لي خف بلونه الأصفر وأنفه الشامخ الى الأعلى كالذي ينتعله طلبة العلم عندنا ، فأشرت اليه وأعلنت رغبتي بأقتنائه فسأله صاحبي :

- إيش الحال . . . وتعني ما هو ثمنه .
- بأربعة دنانير .
- بالزاف . . . وتعني غالي .
- ثلاثة دنانير ونصف .
- أعطنا جوج . . . وتعني اعطنا زوجاً .

فدفعت الثمن وتأبطته نعلاً وسرت وصاحبي نتمم جولتنا في هذا السوق

المشوق ، وقد أعجبتني (القفاطين) و (البدعيات) والقفطان كالبدعية ، الا انه (بكم) والبدعية مع تشديد الياء بدون كم ، فرأيت النساء هنا يلبسن القفاطين و البدعيات على حد سواء ، والملابس المغربية خلابة تظهر المرأة بمظهر الحشمة والفتنة .

والقفطان أو البدعية عبارة عن ثوب طويل فضفاض مفتوح من جانبيه وكل فتحة ترتقي الىٰ الركبة بمحاذاة الساقين فتكشف عن العاج البض (بملعنة) شيطانية مغرية . . ! ويكون القفطان مطرزاً بخيوط الذهب أو الفضة ، ويتصل به غطاء الرأس من نفس القماش .

ويوم زرت الهند بات في ظني أن (الساري) يضفي علىٰ المرأة الهندية وقاراً وجمالاً ، واليوم عندما شاهدت المرأة المغربية بملابسها الوطنية أيقنت أن ذكاء المرأة في كل مكان وزمان يتفتق عن تصاميم مغرية تنتزع الدهشة والاعجاب من عقول الرجال قبل عيونهم . . . . !

وودت أن أطلع علىٰ ثمن القفطان فسألها صاحبي بلطف :

– تسمحي نشوف قفطان مزيان .

– وخا . . . وكلمة وخا بتشديد الخاء تعني نعم .

فأنا لا أدري من أين جاءت كلمة (وخا) هذه ، لعلها لفظة بربرية اذ ما أكثر الألفاظ البربرية في اللغة المغربية .

– إيش الحال .

– خمسمائة دولار . . . ! وأقلها بسعر مائتي دولار . . . فنفضت يدي من شراء قفطان لزوجتي وللعروس هيفاء إبنتي ، لأنني لا أحمل من (صكوك المسافرين) الا ما يسد نفقات إقامتي . . .

ثم مددت يدي بفضول لأتفحص قفطانا حريرياً وجدته معروضا علىٰ الطاولة الخشبية وبينما كانت أناملي تلامس نعومة قماشه ، فاذا بالسيدة المغربية الواقفة بجانبي تقول لي بكل أدب ورقة .

– سيدي (ديالي) . . .

فنبهني صاحبي – والأبتسامة الخبيثة – ترتسم على شفتيه .

– تقول لك إنه لي ، أي (مالتي) باللهجة العراقية . . .

قلت لصاحبي ، وهل تظن بأنني لم أكن أعلم بأنه لها وهل فاتني حينما دفعت ثمنه ، ولكنني وددت أن أستمع الىٰ حديثها . . ! فما خاب ظني إذ وجدته عذباً كعذوبة جمالها . .

– فقال لي ، الا تخشىٰ أن تزجرك يا أخي .

– قلت له ، أنسيت قول الظرفاء – وأنت الأنيق الظريف – حيث قالوا (ليت ذات سوار لطمتي) .

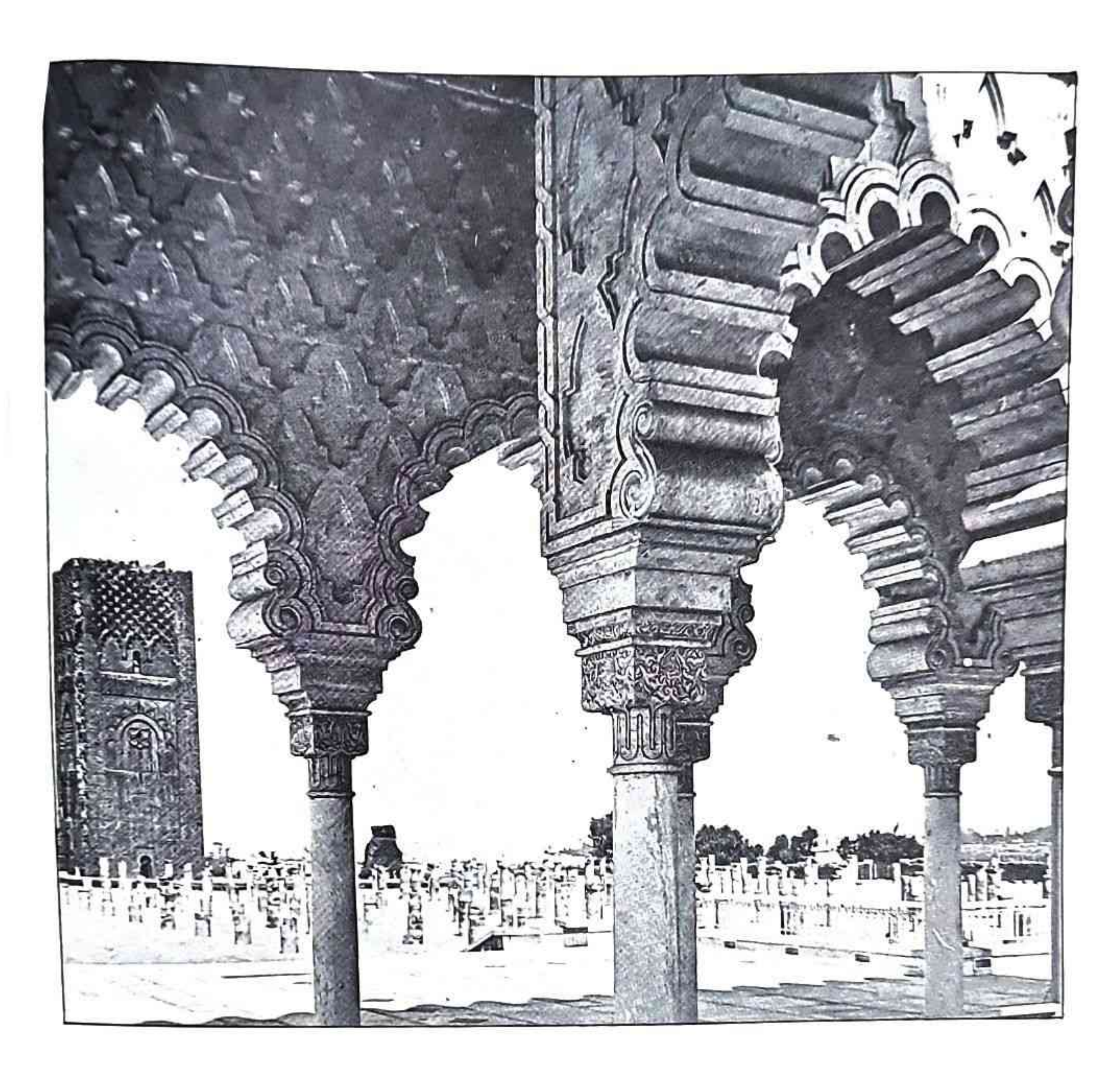
فأجابني والأبتسامة علىٰ محياه ، وقد فطن لحديثي ، ثق يا أخي بأن المغاربة نساءً ورجالاً مضيافون مهذبون بالفطرة ، ولعل السبب في ذلك يعود الىٰ الطبيعة السمحة والمناخ اللطيف قاداهما الى طيب المعاملة وحسن المعاشرة ، فكل شيء في هذه البلاد الجميلة جميل ، لذا ترىٰ جوابها لك مقرونا بالأحترام (سيدي ديالي) . فلا تتأمل أن تخاصمك أو تلطمك . . . !

والواقع أن جمال المرأة المغربية جمال رائع ، وعيون النساء أجمل وأروع ، وكنت أعتقد أن العيون البابلية السوداء والبغدادية الحوراء هي وحدها التي تنفث السحر وهي التي إستأثرت بالشعر .

إن العيون التي في طرفها حور
قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا
يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله إنسانا

ولكن عند زيارتي المغرب إكتشفت أن الجمال لا تحده حدود ولا تقف أمامه سدود ولن تقيده قيود . . . فهو في كل قطر ومكان له نكهته وعطره وسحره . . . فعيون المرأة المغربية لا تقل سحراً وتكاد تكون أفتك قتلا من البابلية . .

وعدت أدراجي الى حيث يستقر فندقي أداري حيرتي . . . وأكبت حسرتي . . . ولكنها ستبقىٰ متأججة . . . ما دامت لي عيون تبصر ، وقلب ينبض وقلم يكتب .



جامع حســـان

جامع حسان

وقف المرشد الذي اتقن ممارسة التحدث بلباقة خطابية إلى جوار مجموعة من السياح مشيراً ببنانه الذي تعود الاشارة برشاقة مهنية فقال : — لقد مضت ثمانية قرون منذ وقف في هذا المكان التأريخي المقدس ، الخليفة الموحدي (أبو يوسف يعقوب المنصور)[1] ليختار هذه الربوة الرائعة المشرفة على جبهة البحر الجنوبية ، المطلة على مقربة من مصب نهر (أبي رقراق) والمقابلة لمدينة (سلا) فالموقع بديع والمنظر أخاذ .

لذا سيظل هذا الموقع التأريخي يطاول الزمان ويتحدى تقلبات الحدثان ، وسيبقى شاهداً على عظمة أجدادنا ، وسمو مكانة أمجادنا .

فحينما خامرت الخليفة أبا يوسف فكرة بناء (جامع حسان) في هذه البقعة المدهشة ، وطد عزمه على تنفيذها عام ١١٩٧م قام بتشييد أعظم مؤسسة دينية حضارية لتبقى خالدة مخلدة إسمه وعصره الذهبي .

فموقع الجامع ، وجلال منظره ، وانتصاب أطلاله الماثلة في بقايا أسوار تغلب عليها الحمرة ، وفي أعمدة تهشمت رؤوسها وتلاشت أكثر أعمدته وتهدمت جل جدرانه ، وطمرت من هذه وتلك تحت الأنقاض والتراب ، وغمرها النسيان بفعل تراكم الايام ، وطمع الانسان ، اذ راح كل ينتزع من ذلك الركام الاحجار ليشيد بها داراً ، كما استعملت الاخشاب لصنع المراكب والقوارب ، وشبيه ذلك حدث في أكثر آثارنا العراقية للأسف ، من بابلية وآشورية . . وحتى العباسية في عهود سوداء ، مرت على بلادنا وهي محكومة من قبل حكام لم يعيروا للتراث قيمة ولا للآثار قدراً .

---

(١) الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور : هو الخليفة الموحدي الثالث الذي تولى الملك منذ عام ١١٨٤م والذي أصدر أمره بتشييد (جامع حسان) ليضيفها إلى مأثرة الموحدين عندما بنوا (جامع الكتبيين) بمراكش والجامع الكبير في اشبيلية : (راجع كتاب تاريخ المنّ بالامامة ص ٤٧٤) .

وكما أن المصائب تنزل جملة ، كذلك كان الامر مع هذا الجامع الصّامد الصابر ، إذ لم ينج من تبعات وأوزار المعارك الحربية ، التي دارت رحاها في المنطقة ، ولا من الزلزال العنيف الذي حدث عام ١١٦٩هـ = ١٧٥٥م والمعروف (بزلزال لشبونة)[1] لانها كانت مركز ذلك الزلزال الذي أطاح بالقسم العلوي من الصومعة وأسقط الكثير من نحوت أحجارها ، وبقي النزر القليل منها ماثلاً للعيان حتى اليوم .

ورغم كل هذه الاحداث الجسام فان صومعة حسان مازالت حتى اليوم تقف شاهداً على عظمة المسجد ومكانته ، حيث يبلغ ارتفاعها الآن حوالي خمسين متراً ، في حين كانت تبلغ أكثر من ثمانين متراً كما يبلغ طول كل ضلع من قاعدتها المربعة الشكل ستة عشر متراً ، ويبلغ سمك كل جدار من جدرانها مترين ونصفاً ، فهي في اعتقادي أعلى وأضخم مئذنة في المغرب - الحديث مازال للمرشد - ثم عقب قائلاً ، وليس بغريب فإن عظمة الجامع وشموخ مئذنته إنبثقا عن طموح العاهل الموحدي وعظمة دولته ورسوخ قاعدتها وقوتها .

ثم أخذ المرشد بيدنا مشيراً الى ممر تصاعدي ترتفع بنا سلالمه الضيقة الى أن نصل الى سطح علوي نشرف منه على منظر مدهش يطل على مدينتي (الرباط) و(سلا) ثم تطلعنا الى شعبة نهر (أبي رقراق) حتى مصبه البديع ، والتفتنا الى جهة المحيط بزرقته اللامتناهية ، واذا ما توجهنا نحو الجنوب صافحنا البناء الحديث لضريح الملك (محمد الخامس) رحمه الله بمجموعته المكونة من المسجد والمتحف المشيدة على إمتداد أطلال جامع حسان .

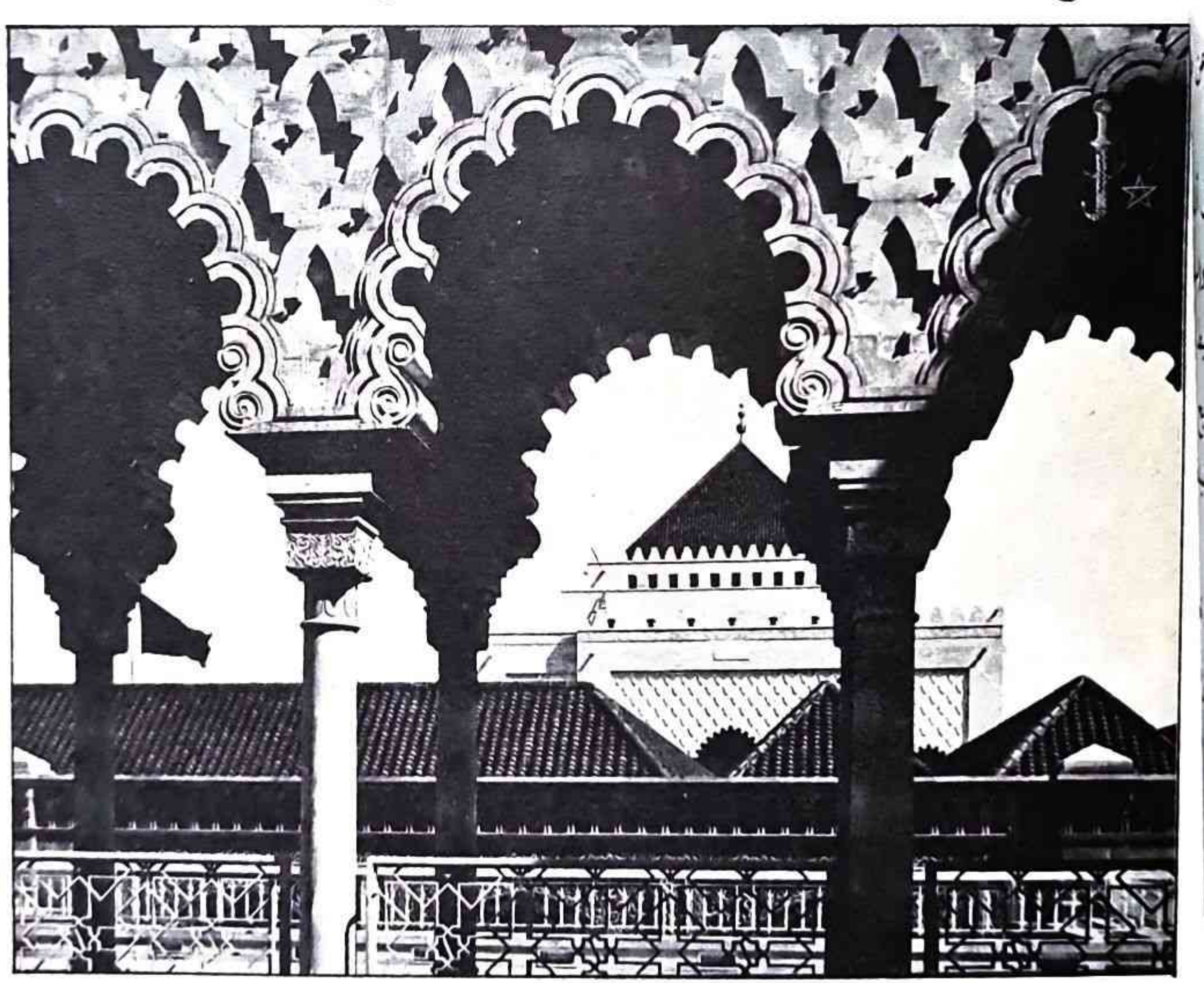
وهنا أشار علينا المرشد بزيارة قبر العاهل المغربي (محمد الخامس) الذي تعاطف مع العراق فأحبّه العراقيون ، والذي كان له الفضل الأكبر في تحرير بلاده من قبضة الاستعمار الغربي ، لم يهن ولم يلن في صراعه معهم رغم النفي والتشريد ، حيث

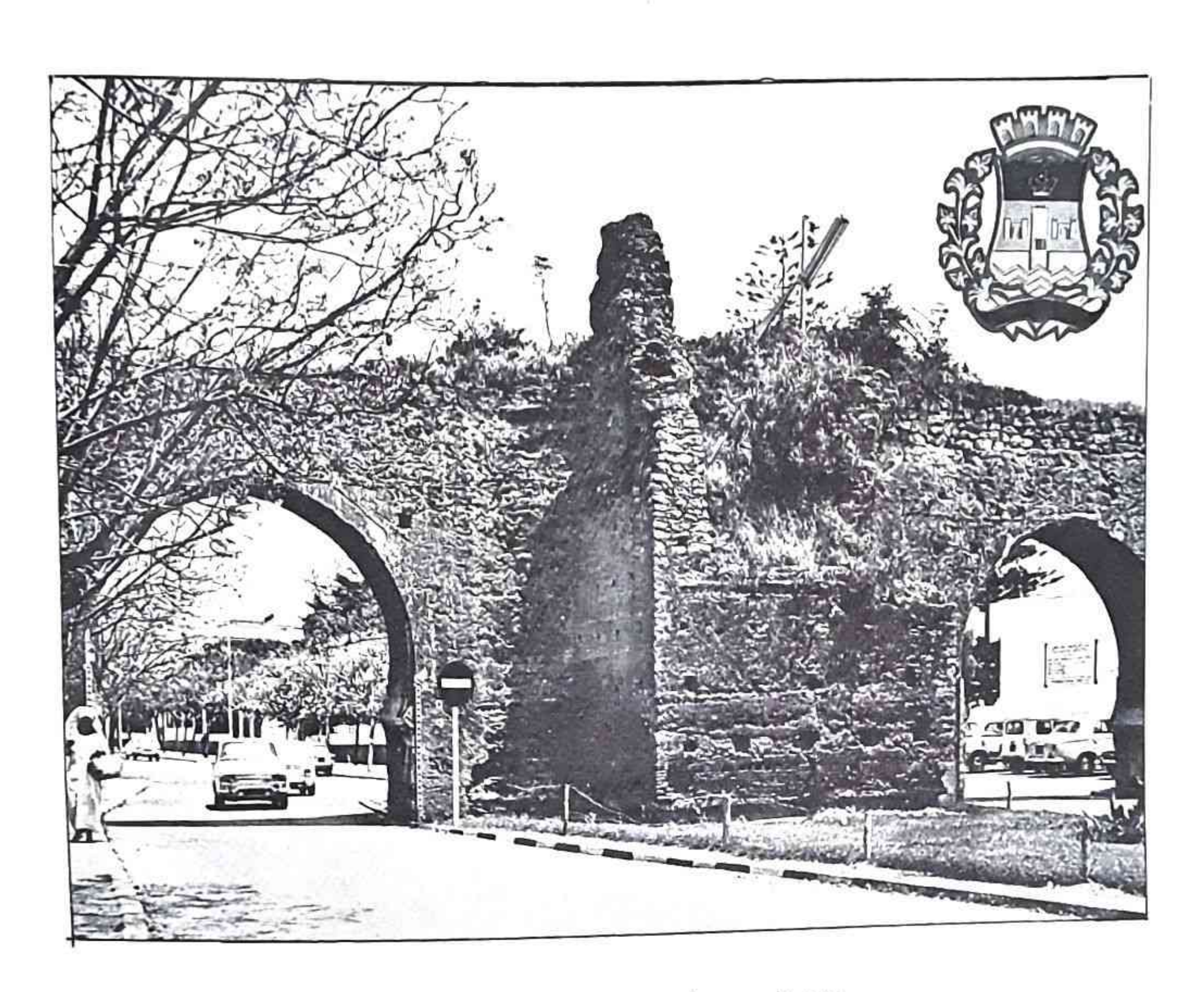
---

(١) دمّر هذا الزلزال عدداً من المباني التأريخية في المغرب حتى لَيستحق في نظرنا تسميته بزلزال المغرب (راجع نشر المثاني للقادري ، نشر د . سيكار وتقديم د . عبد الهادي التازي (نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي) ص ٧٧ .

تحملها بصبر المواطن المؤمن وجلادة المجاهد المخلص ، حتى عاد الى بلاده ، وعادت الحرية والاستقلال لأرضه ووطنه .

ضريح العاهل المغربي الراحل الملك محمد الخامس في مدينة الرباط .





بقايا السور القديم لمدينة الرباط

زيارة ضريح العاهل المغربي

بينما كنا نتجول في ساحة (جامع حسان) وحينما التفتنا الى جهة الجنوب أدهشنا البناء الجديد لضريح (الملك محمد الخامس) بمجموعته المكونة من المسجد والمتحف المشيدة على إمتداد أطلال جامع حسان فاتجهنا لزيارة ضريح محقق استقلال المغرب وباعث نهضته الحديثة .

وسرنا خلال ركام من الأعمدة المرمرية التي تهشمت تيجانها وتآكلت قواعدها وطرحت بقايا جذوعها في الساحة الواسعة للجامع . وبينما كنا نسير في هذه الساحة التأريخية الأثرية (أخذ المرشد يؤكد لنا بأن فكرة بناء الضريح إنبثقت عن ولده البار (الملك الحسن الثاني) كي يعيد الى هذه الربوة سالف قدسيتها الدينية وحاضر مكانتها الوطنية . إذ امتازت بالنسبة لأحداث الوطن القريبة كون أن العاهل المغربي الراحل إختارها بنفسه إثر رجوعه من منفاه عام ١٩٥٥م ليؤدي فيها صلاة الجمعة . فسار اليها في موكب حافل من شعبه المخلص الوفي ، ثم أمست بعد سنين قصار منطلقا لذلك الوداع الشعبي . لتشييع جثمانه الطاهر .

وعندما بلغنا الضريح حيث مثوى المغفور له الملك محمد الخامس شاهدنا واجهاته ترتكز على أعمدة عليها أقواس مفصصة محملة على الاعمدة أقواسها الوسطى أوسع واعظم من القوسين الأخريين الواقعين على جانبه . ويحيط الواجهات إطار مستطيل مكون من ثمانية أعمدة في زواياه الأربع . ولقد زينت الواجهات برسوم ناتئة منحوتة على شكل معينيات مشبكة تشبيكا منظما . ورأيتها تشابه الى حد كبير النماذج الزخرفية المنقوشة على واجهات صومعة جامع حسان .

وقد بهرتنا أعمدة الواجهات حيث نحتت قطعة واحدة هي وتيجانها وقواعدها . أما جذوع الأعمدة المنتصبة في واجهة الضريح فتستقر على دائرة متسعة . وقد نحتت بدقة إبتداء من قاعدتها الى نحو الثلث من أرتفاعها . ثم أمتدت ضامرة بشكل بديع باتجاه قمتها ، لتبرز للعيان ممشوقة القوام ، وكأنها تنبض بالحياة !

وتحيط هذه الاعمدة الرشيقة واجهة جدارية لأركان البناية الأربعة التي تحف بقاعة القبر ، وقد كسيت أوجه الجدران بالرخام الايطالي ذي اللون الأخضر الزمردي ، وحزمت بحزام أبيض مزين بتوريقات زخرفية عربية بارزة تشابكت فيها النقوش الزهرية بالكتابة الاندلسية ولقد أمتدت هذه النقوش الكتابية المزخرفة التي رصعت بآيات قرآنية وقد افتتحت بقوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ليفغر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً) يتلوها مديح للمغفور له الملك محمد الخامس .

وأما سقف الرواق المرتفع على أعمدة الواجهة فانه مصنوع من خشب الأرز المزين بالنحوت الفنية والمشتمل على عارضات ناتئة كما ركبت على الجدران الاربعة لقاعة الضريح أربعة أبواب كبيرة صنعت دفاتها من البرنز المنقوش بالنقوش الجميلة .

ومما يلاحظه الزائر أن التركيب المعماري لهذه المجموعة الفنية ، مازالت تستمد معينها من طابع الفن المعماري الأسلامي ، الذي يعتمد أعتماداً كلياً على تفتح الفضاء الداخلي ، فبالنظر للوظيفة الخاصة بكل بناية من البنايات الثلاث ، تتكيف الهندسة وتنطبع بسمات مختلفة ذات أشكال بديعة ، فهناك هندسة المعبد والمزار بالنسبة للضريح ، وهناك هندسة الصلاة والتعبد ، فيما يتعلق بالمسجد ، وهناك هندسة المتعة بما يناسب المتحف ورواقه .

وهنا تبدو عبقرية المهندس المعماري (فوطوان) الفيتنامي وروعة فنه ، فعوضاً عن ان يجعل هندسته تتعارض وتتنافر ، بل على العكس جعلها تتكامل وتتآلف على أجمل صورة ، وتشكل مجموعة منسجمة متناغمة تناغماً محكماً وكأنها سمفونية رائعة التلحين محكمة الأداء .

كذلك يلاحظ الزائر ست عشرة سقاية مستندة الى الجدار ومزينة بروائع الفسيفساء ، وفي خارج المباني توجد سقايات وحوضان صغيران وكلها مزخرفة

بالفسيفساء وترصيعات الرخام الملون ، التي ينساب عليها الماء فيضفي عليها رونقا وحياة .

كما أضفى تشييد المسجد والمتحف بجوار المرقد تناسقا هندسياً بديعاً على هذا الانسجام في التركيب المعماري الفخم على هذه الربوة المضبوطة ، إذ البنايات الثلاث متممة بعضها لبعض ، ليس هندسياً فحسب بل حتى من الوجهة الوظيفية الدينية والدنيوية وحتى التأريخية .

إن ما يثير الأنتباه والاعجاب حقاً تلك الأنامل الخلاقة المبدعة التي أتقن بها الصناع والعمال الزخرفة والنحت والبناء ، سواء فيما يتعلق بالنحوت الجبسية أو الخشبية والفخارية ، فقد شاهدنا في زخرفة الضريح رسوما زهرية وكتابية وهندسية في غاية الأنسجام والاتقان ، ولا تخرج عن قواعد الخط العربي وأسلوبه وزخرفة ونقوش الاضرحة المماثلة الاسلامية .

فالزائر يشاهد تقنية رقيقة دقيقة تدل على براعة وخبرة عرف مبتدعوها كيف تحفر ما بين الرخام والبرنز وما بين الجبس والخشب ، إن تلك الأعمال اليدوية التي قدمها العامل المغربي بكل مقدرة وإخلاص أضفت على الفضاء الهندسي جمالاً برز جليا أخاذا بفضل المهارة الفنية ذات الأصالة العربية المغربية الأندلسية .

إن هذا المشهد المعماري يعتبر بحق عملاً إبداعياً فنياً هندسياً ومعمارياً رائع الاتقان ، حيث قد زخرفت أفانينه وازدهرت أحجامه ، وتناسقت رسومه ، وتآلفت الوانه وتناغمت عماراته ، ومما زاد في روعة المشهد وعظمته ذلك الجو الروحاني الذي يوحي بالطمأنينة والجلال ، ومما يبعث في النفس ذلك الأحساس الخفي بالأمان ، ذلك الضوء الباهت المنبعث من وراء قطع الزجاج المرصوفة في القبة ، وبخور ذلك (العود القماري) الذي يحترق على مهل فيفوح برائحته الزكية ويتصاعد الينا بهدوء ، ومما يضفي القدسية على هذا المشهد المعماري بل هذا الموكب الروحاني ، ذلك الصوت الدافئ المنبعث من الشيخ المقرئ القابع باحدى زوايا القاعة الخاشعة يرتل بأسترسال عذب آيات قرآنية محكمة من (رحمن رحيم) .

وصفوة القول في هذه التحفة المعمارية الرائعة ، أنها أضحت رداً حسنا على جهاد العاهل المغربي الراحل الذي سعى لتحرير بلاده من قبضة المستعمرين يسانده الشعب المغربي الأبي ، وبرغم ماجوبه به من معوقات التنكيل والنفى والتشريد تحملها بصبر المؤمن وجلادة المجاهد حتى عاد الى أرضه مكللاً بالغار محققا لوطنه وشعبه الاستقلال والانتصار .

زيارتي لمدينة فاس[1]

في صباح يوم من أيام آذار ، وأؤكد على آذار لأنه شهر قلق لا يستقر جوه علىٰ قرار ، فقد إستقبلني مبكراً بوجهه المكفهر ، متفائلاً بأن سيغير طبعه ، فيرسل خيوط شمسه الفضية ليبدد هذه الكتل من الغيوم القطنية ، ولكني رغم تفاؤلي فقد احتطت لسفرتي الطويلة فارتديت معطفي ورفعت (الكلاو) الروسي ، ليدفئ البقية الباقية من فروة رأسي ، قاصداً مدينة فاس مشتاقا لزيارة (جامعة القرويين) إذ شوقني لرؤيتها العلامة الجليل (الشيخ محمد رضا الشبيبي)[2] وشفع قوله المشوق باهدائه لي نسخة من كراسه الموسوم (رحلة المغرب الاقصىٰ) .

فطالعته باعجاب التلميذ باستاذه الجهبذ ، والكل يعلم أن جامعة القرويين ملئ السمع والبصر فقد قرأنا الكثير عنها وسمعنا عن موقفها وصمودها المشرف في المحافظة علىٰ لغة القرآن الكريم ، رغم الغزو الفرنسي والأسباني للمغرب العربي ، فمركزها الروحاني والعلمي كمركز (النجف الأشرف) في العراق و (جامع الأزهر) في القاهرة و (جامع الزيتونة) في تونس و (الجامع الأموي) في دمشق ، فلكل من هذه المراكز الرفيعة ، قداسة وعلماً ، دوره وفضله في المحافظة علىٰ اللغة العربية ونشر الدين والفضيلة .

---

(١) ذكر ابن ابي زرع في سبب تسميتها (فاس) فقال :)لما شرع أدريس في بنائها كان يعمل فيها بيديه مع الصناع والبنائين تواضعا لله ، فصنع له بعض خدمه(فأسا) من ذهب وفضة فكان أدريس يمسكه بيده ويبتدىء به الحفر ويختط به الاساسات ، فكثر عند ذلك ذكر الفاس على السنتهم طول مدة البناء . هاتوا الفأس خذوا الفأس احفروا بالفأس فسميت مدينة فاس .

(٢) إثر عودة العلامة محمد رضا الشبيبي من المغرب ، أقام له الدكتور حسين أمين دعوة عشاء في داره العامرة ضمت نخبة طيبة من العلماء والادباء أذكر منهم الدكتور مصطفى جواد ، الاستاذ جعفر الخليلي ، الدكتور عبد الهادي التازي ، الدكتور حاتم عبد الصاحب ، الأستاذ فؤاد عباس ، الدكتور سليم النعيمي ، الدكتور علي الوردي ، ناجي جواد .

أقول خرجت مبكراً من مدينة الرباط الناعمة المنعمة باغفاءة الصباح ، متوجهاً الى مدينة فاس الأثرية ، مغادراً زوجتي تنعم بنوم الضحىٰ في سريرها الوثير في فندق (تورحسان) البديع ، الذي سمي بأسم جامع حسان القديم وقد صمم تصميما معمارياً مغربياً محاكيا الريازة المغربية التي طبعت بطابع الفن المعماري الأندلسي ، بحيث ظن الكثير – وأنا أحدهم – بأن الريازة الأندلسية إنتقلت من الأندلس الىٰ بلاد المغرب عند نزوح المهاجرين ، فصحح خطئ ذاك صديقي وصديق العراق عالم السفراء وسفير العلماء (الدكتور عبد الهادي التازي) في أحد لقاءاتنا الأدبية بدار سفارته ببغداد .

وأعجبتني براعة المهندس في بناء هذا الفندق ، حيث مزج بين القديم والحديث ، فكان مزجا منسجما مع روح العصر وطابع المغرب ، فظهر للمسافر مزجاً بديعاً مريحاً كما تمزج الخمرة بالماء فيزيد منظرها وتصاعد حبيباتها المتفاعلة رونقاً محبباً ، كما يسري دبيبها بنعومة في العيون المشوقة .

وكذا فعل المهندس المغربي المعاصر عندما مزج هيكل الفندق الكونكريتي فتانه بالجبس والخشب فظهرت القاعة والصالون والغرف كاجمل فن معماري مما أغرىٰ زوجتي بأن تقيم يومين فيه تنتظر عودتي من جولتي المحببة في مدينة فاس .

فغادرت الغرفة بهدوء لتبقى هي نائمة ناعمة بأحلامها الوردية ، وسرت لأقطع الشارع الطويل الىٰ حيث مركز كراج سيارات (الأوتوبيس) الذي يقل السياح الى المدن المغربية المجاورة بعضها لبعض ، وأردد في همس يزيل عني متاعب الرحلة ،

كتب الحرب والقتال علينا وعلىٰ الغانيات جر الذيول

ولما إندسست في الأوتوبيس وجدته يغص بالسياح وكل قد أخذ مقعده المخصص له حسب الترقيم ، فوجدت مكاني بجوار رجل وقور يرتدي البرنص المغربي بلونه الرمادي الذي يتناغم ووجهه الملوح بحرارة شمس المغرب الدافئة الذي ضاعفت لحيته المشذبة إشراقاً وزادتني به إطمئناناً حينما رد علىٰ تحيتي بالطف منها .

وعندما إجتزنا بقايا سور المدينة القديم وكان لكل مدينة من المغرب سور يحميها من غزو الطامعين ، وما زالوا يبقون عليه حتىٰ اليوم كأثر تاريخي ثمين ، وعبرنا الجسر القصير وهو أقرب الىٰ أن يكون قنطرة طويلة من أن يدعىٰ جسراًورغم هذا فهو مهم لأنه همزة الوصل بين الرباط ومدينة (سلا) حيث يستقر فوق نهر (الرقراق) الهادئ بضفافه الرملية الرخية الرضية بنسيمها العليل ، وإنسياب نهرها الذهبي برقة وهدوء لينصب في البحر الكبير ، ولما أصبحنا في الجانب الثاني من الجسر سار بنا الأوتوبيس الضخم في شوارع (سلا) ذات الموقع الخيالي الخلاب ، وهي أقرب ما تكون شبها بمدينة (بابل) الحلة الفيحاء التي تغفو علىٰ ضفاف نهر (الفرات) بأمان ، والتي كثيراً ما أهفو لزيارتها .

•

أقول ولما أصبحنا في الجانب الثاني شاهدت جموعاً من المزارعين يقودون عرباتهم الخشبية الغاصة بأنواع الفواكه واصناف الخضر الطازجة تسحبها البغال المتعبة لتصل بها الىٰ مدينة الرباط .

وإنطلقت بنا السيارة تقطع الشوارع المزفتة بنعومة وسرعة فنشاهد على الجانبين حقول الكروم وبساتين الفول والجزر واللفت ، ومزارع الحبوب من حنطة وشعير وعدس وحمص ، ثم إنعطفت سيارتنا نحو مقهى شعبية ، بعد أن قطعت منتصف الطريق ونزلنا عندها ، وجلسنا على (تخت) خشبي متواضع ، وتوجه نحونا النادل الطيب يسألنا عما نود أن نشرب (التاي) أم القهوة ام التاي بالنعناع الطازج ، ولم اسمع من قبل ان النعناع بورقه الطري الأخضر يقدم بالماء المغلى كالشاي ، فوددت تجربته لذا طلبته ورحت أراقب النادل وهو يغمس يده النظيفة بصحن كبير غص بورق النعناع ويدسها في كأس زجاجي كبير ، ثم يضعه تحت حنفية السماور ويسكب عليها الماء الحار ، فقدمه لي مع الملعقة كي أحركها لأذيب السكر ، ثم أخذت أترشفه رشفة رشفة فكان لذيذ الطعم زكي العطر ، وجاءني رفيق طريقي السيد محمد الأغاديري بكسرة خبز ريفية دس فيها بضع شرائح من اللحم المشوي ، وكانت رائحة شوائها قد تصاعدت الىٰ أنفي قبل أن يذوقها فمي .

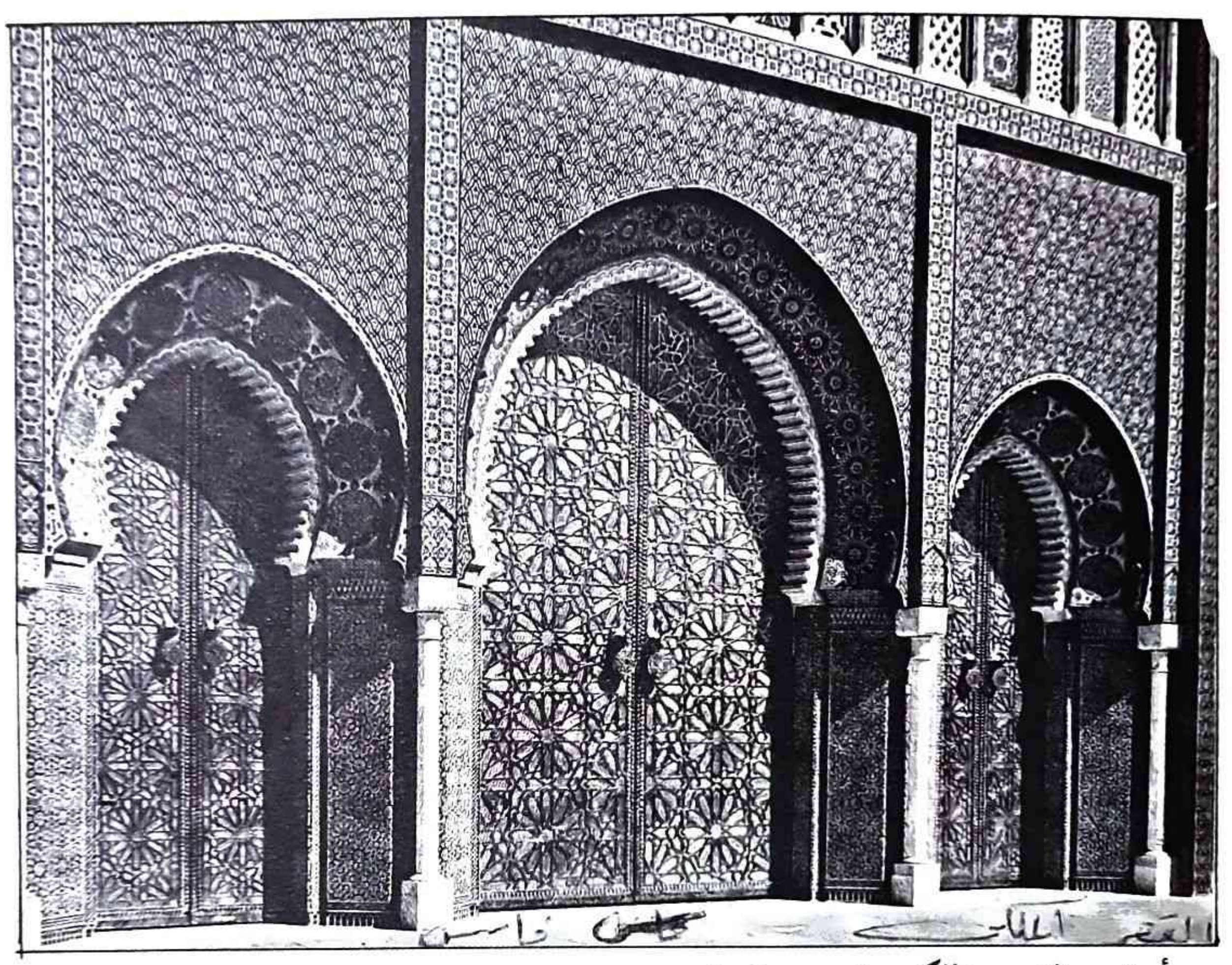
ثم أنطلقت سيارتنا ، وعدنا ثانية نشاهد الأرض الطيبة تفرش بساطها الأخضر تطرزها أشجار الزيتون واللوز والبرتقال والصنوبر ، وهي شاخصة تغتسل بمياه الأمطار المتساقطة بغزارة ، وأصبحت أشعر وأنا أسير في هذا المهرجان الريفي الذي يسير بموكبه الربيعي المضبوط وكأنني أرغب بأن أضع صدري علىٰ هذا البساط السحري ليطير بي الىٰ عالمي الخفي الىٰ حيث لا أدري . . .

وتنبهت من أحلامي على حديث صاحبي وهو يقول لي . . . ولكن مدينتي (أكادير) نكبت بالزلزال عام ١٩٦٠م فتركها أثراً بعد عين ، غير أن حب شعبها البار لها وتعلقهم بها أعادا لها الحياة ثانية – وهكذا يصنع الحب العجائب – فترىٰ ثورة من العمران منتشرة في انحاء أكادير الحبيبة ، واستمر يشرح لي بظرف عن نواحي عظمتها وجمالها الطبيعي وسعة خيراتها وعذوبة مائها ، ويشوقني لزيارتها ، لذا قدم لي اسمه وعنوانه ، فشكرته لعطفه وظرفه .

ثم سألته عن سر قدومه لمدينة فاس ، فاجابني الرجل الوقور ، بأنه يود التبرك بزيارة ضريح (السيد الأدريسي) ولكي يؤدي فريضة الصلاة في جامع القرويين ثم زيارة قبور الأولياء الصالحين .

وصلنا مدينة فاس ، ولا أدري كم مضىٰ من الوقت بفضل صحبة هذا الرجل التقي ، لذا صحبته ليدلني علىٰ (جامع القرويين) أو جامعة القرويين ، لأهميته الروحانية والعلمية والأدبية ، وكان – رفيقاً رقيقاً طيباً – وما أكثر الطيبين – وسرنا ننحدر في سوق طويل غفت على جانبيه دكاكين قديمة ، وإدحمت فيه السابلة من تجار وحرفيين وسياح ، ومما يضاعف متاعب المتجول من هذا السوق الأثري كثرة الحمالين والبغال والحمير إذ تتكدس على ظهورها (بالات) الأقمشة والتبغ أو صناديق الصابون والشاي أو أكياس السكر والتوابل والعطاريات على إختلافها ، فهو شبيه كل الشبه (بسوق الشورجة) في بغداد ، أو (سوق الحميدية) في الشام .

علماً بأن مدينة فاس التي كانت عاصمة المغرب أيام الأدراسة فهي اليوم تعتبر عاصمة الثقافة المغربية بحق وهي أيضا قاعدة البلاد ، ومركز إشعاعها الفكري والفقهي .



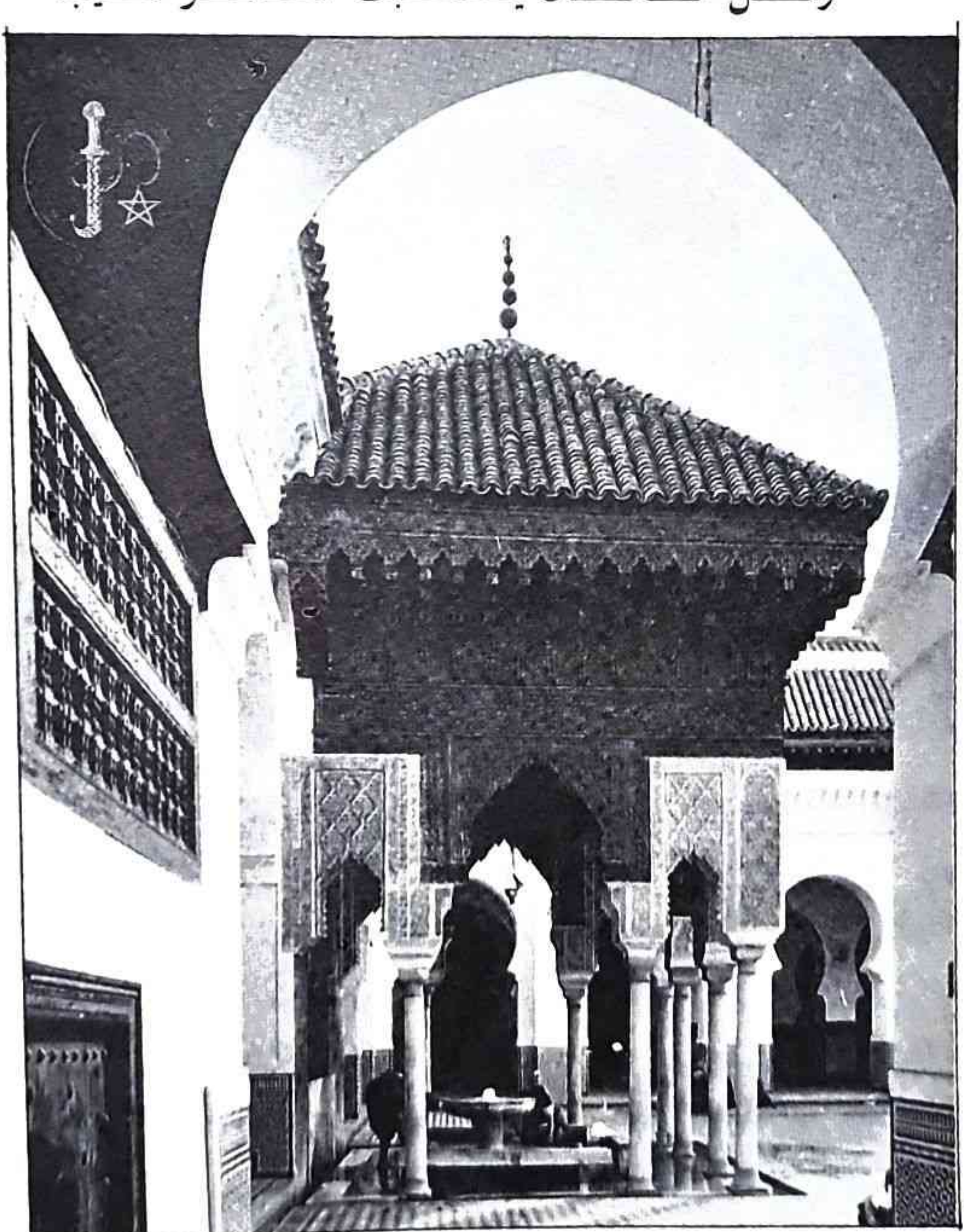
أبواب القصر الملكي في مدينة فاس

وعقب صاحبي محمد الأغاديري بقوله ، إن مدينة فاس تعتبر الأم الرؤم لبلاد المغرب في القديم والحديث ، وبجملة معترضة ذكية تبسم وقال . . ولكن يا أخانا لا يخفىٰ عليك أن المدن كالناس و (الناس حظوظ) . . . يا أخي وكذا كان حظ فاس قليلاً فلم يسعفها الحظ رغم اعتدال هوائها وطيبة تربتها وتدفق عيونها وعطائها السخي الطبيعي والثقافي ، الا أنها ما زالت تعيش في زهد الصوفي وقناعة المؤمن ، لذا تراها اليوم كما نشاهد هذا السوق القديمة ببضاعتها المهملة ومحلاتها المهدمة وزبائنها البسطاء وتجارها الضعفاء ، وأزقتها الضيقة وبيوتها العتيقة ، وحتىٰ شعب فاس فهو شعب

منسي هنا ، الا أنه رغم هذا النسيان الطويل وذاك الأهمال الممض فانك تلاقي أبن فاس ووجهه يطفح بشراً ، ولسانه يندىٰ بـ (اهلاً ومرحباً) ، لذا حينما ضاقت نفوس الطموحين من أبنائها هاجروا منها غير عاقين ولا حاقدين ، غير أنهم للرزق ساعون وللحياة الأفضل ناشدون . وكانهم يتمثلون بقول شاعرنا المتنبي المتفتح للأنطلاق والحرية .

وكـــــل أمــــرئ يولي الجمــــيــــل محبب

وكـــل مــكـــان يــنــبت الــعــز طــيب



باحة جامع القرويين في مدينة فاس

كنت اصغي لحديث صاحبي بشوق ومتعة ، والطريق ما زال ينحدر بنا فأرىٰ تارة الدكاكين تتثاءب علىٰ جانبي السوق ، ثم أرىٰ حارة ضيقة تطل علينا دورها القديمة بشناشيلها وشبابيكها الخشبية المزججة بالوان من الزجاج البديع فكم هي شبيهة ببيوت وأزقة بغدادنا التي صاحبتنا في نشوة طفولتنا وصاحبناها في نزق صبانا وعز شبابنا . . . .

ولما وصلنا الىٰ قعر الوادي المنحدر الذي شيدت في قعره مدينة فاس ، حيث استقرت هناك جامعة القرويين بأطمئنان مغبوط ، وعندما دخلتها شعرت بأنني أدخل جامعاً إسلامياً رحباً ، تزين جدرانه قطع بديعة من القاشاني الملون وتزيده جلالا أقواسه الاسلامية الشامخة .

وسرنا نحو المصلىٰ علىٰ حصر مفروشة ، فطفنا بخشوع في أركان الجامع وحرمه . وشاهدنا بضع زوايا يقبع فيها حزمة طيبة من طلاب العلم والفقه . يتوسطهم شيخ وقور يرتدي الجبة ويعتمر بالعمة ، يدرسهم تفسير القرآن ، وفن ترتيله ، وطريقة تجويده . وراق لنا أن نتحدث مع أحد الشيوخ ، فأجابنا بفخر واعتزاز قائلاً أن هذا الجامع إرتبط إرتباطاً وثيقاً بأحداث المغرب العربي ، فقد تخرج منه الوف العلماء والفقهاء ، وزحفت قوافلهم ترتقي السوق الطويل لتنشر في مدن المغرب كلها المعرفة . وتسافر بعضها الىٰ قلب أفريقيا لتنشر العلم ، وتنشد الروابط الانسانية وتعمقها بين أفريقيا الخضراء والسوداء إذ أن رسالة القرويين لم يحددها لون أودين لأنها كانت تنظر للون والدين نظرة إنسانية علمية حضارية ، لذا ورد عليها كثير من الاقطار الأوروبية المسيحية طلاب علم وعلماء فزودتهم بنورها ولم تبخل عليهم بالعطاء العلمي .

وشجعني الشيخ الفاضل على أن أسأله عما أذا كانت هناك مكتبة . فاجابني بثقة ، إن مكتبة الجامع تزخر بعشرات الألوف من الكتب والمظان ، وتضم بين دفتيها عشرة الآف مخطوط نادر لأشهر العلماء والفلاسفة والكتاب (كالجاحظ) و (ابن رشد) و (ابي بكر بن الطفيل) وفيها نسخة من تاريخ (أبن خلدون) وهي النسخة الأصلية التي قدمها أبن خلدون هدية الىٰ خزانة الجامع تيمناً وتبركاً . وجل المخطوطات مكتوبة على (رق الغزال) وسألته عن عدد الطلاب ، فقال يقدر عددهم اليوم بحوالي سبعة آلاف طالب .

وعندما ارتفع صوت المؤذن للصلاة منادياً (الله اكبر . . .) توجهنا الىٰ باحة الجامع المرمرية المكشوفة الىٰ حيث زرقة قبة السماء الصافية وقبعت وصاحبي علىٰ حافة الحوض الكبير ذي الطراز الأندلسي الرائع ، نشمر عن أردانا للوضوء كي نشارك الوفود القادمة من أنحاء السوق لنؤدي معهم فريضة الصلاة .

وبعد اداء الفريضة ، إنتشر الناس في باحة الجامع وسار كل نحو غايته الدنيوية ، وهنا التفت صاحبي نحوي يسألني بأدب جم ، هل تحب يا أخانا أن تزور مرقد العلامة (الأمام التجاني) وكنت ومازلت اختزن في ذاكرتي ذكرىٰ طيبة (للعلامة التجاني) حيث طالعت كتابا موسوما بـ (رحلة التجاني) وكانت رحلة أدبية طريفة إستفدت منها وأنست بها ، ولا أدري ولا صاحبي يدري ، هل هذا المرقد يخص ذلك الرحالة . . . ؟ ! ولكنني وأنا الذي أقدس العلم وأجل العلماء لم لا أسعد نفسي بزيارة مرقد العلامة .

وخرجنا من جامع القرويين وسرنا قليلا ثم إنعطفنا نحو زقاق ضيق مظلم ودخلنا داراً شرقية قديمة بائسة ، ورأينا في ساحة الدار المكشوفة صبية وأطفالا بأسمالهم الرثة واحذيتهم المتهرئة يمرحون ويلعبون فابتسمنا لهم بظرف وتحدثنا اليهم بلطف ، فعلمنا بأنهم من أحفاد العلامة التجاني يسكنون الدور المجاورة وينتشرون في هذه الحارة ، ثم اتجهنا نحو المرقد المتواضع ووقفنا عنده بخشوع واحترام ؛ وتلونا سورة الفاتحة ، وخرجنا من الدار وكان منظر الأحفاد البائس قد ترك فينا الحسرة تعتصر قلوبنا ، والألم الممض يضغط على صدورنا .

ولما إنحدرنا نحو السوق ، سألني صاحبي الأغاديري ..

-والآن هل تحب أن تتم رحلتك معي للتبرك بزيارة مرقد (الأمام السيد الأدريسي) حيث يستقر ضريحه الطاهر في أعالي هذا السوق فاستجبت لدعوته الخيرة ،حيث أعلم أن السيد أدريس الثاني ولد بعد وفاة والده (أدريس أبن عبدالله العلوي) الذي هرب الى المغرب الاقصىٰ بعد موقعة (فخ) في عهد الخليفة العباسي (الهادي) ونجح في إثارة أهالي المغرب على العباسيين ، فقامت دولة الأدارسة على يده سنة ١٧٢هـ ، وقد خشي (هارون الرشيد) تفاقم خطر أدريس فدس له السم على يد (الشماخ) ومات

مولاي أدريس ، وترك أمةً بربرية تدعىٰ (كنزة) حاملاً منه ، فانتظر أشياعه ، حتى وضعت طفلا سموه (أدريس الثاني)فبايعه المغاربة ملكا عليهم وهو في مهده ، وقام بتربيته ورعايته (راشد المخلص) ومنح هذا الشرف لأخلاصه لوالده .

وطالب أدريس الثاني أن يخرج باحثا عن مكان مناسب لأقامة عاصمته ، فجاء الى الوادي الذي هو وسط منبسط يفصل تلال الساحل عن جبال الأطلس ، حيث تلتقي عندها طرق مراكش المهمة ، وحيث يبدأ تدفق النهر الذي يصب في المحيط الأطلسي ، فاشترى الأرض من مالكيها(بني الخير) وأسس مدينة (فاس) سنة ١٩٢هـ عام ٨٠٨م ، فشيد عدوة الأندلس ثم أحاط بها السور ثم أنشأ عدوة القرويين وبنى جامع الشرفاء .

فصعدت مع صاحبي الاغاديري من خلال السوق حتى وصلنا مرقد السيد الأدريسي ، فرأيته يشابه تمام الشبه عتباتنا المقدسة المستقرة في أنحاء العراق ، فشاهدت الناس يطوفون بخشوع حول الضريح الذي يزهو به الحرير الأخضر ، وهناك آخرون يوقدون الشموع الملونة ويدعون وينذرون النذور ، ولاحظت حلقات من الطلاب يتوسطهم معلم وهم يرتلون معه آيات من القرآن .

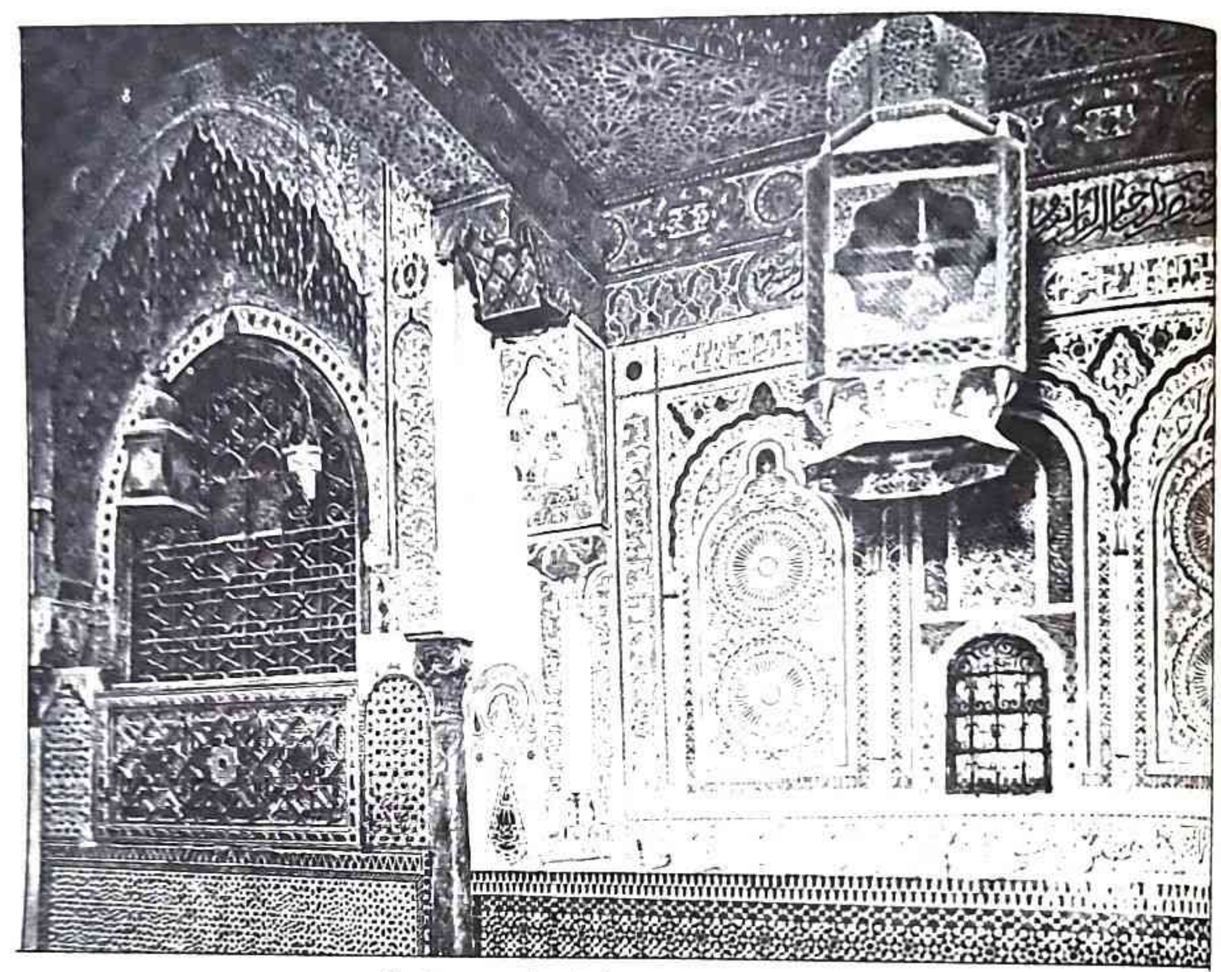
وبعد أن طفنا حول مرقده الشريف ، ودعت صاحبي محمد الأغاديري ، إذ أدركت أنه جاء متبركا بالزيارة وملتمساً الدعاء ، وأنا جئت متشبثا بالرحلة ومتحريا لمعالم المدينة الأثرية ، فاستاذنته شاكراً وودعته قائلاً (يامن يعز علينا أن نفارقه ...)

وخرجت وحدي لأرتقي سوق الجلود متجها نحو (باب الفتوح) إذ يوصلني الى نهاية السوق الطويل الذي شيد على جانبي جدرانه (سبيل ماء) بعد أن زخرفت جدرانه بالقاشاني ورصعت بالفسيفساء ، فشاهدت الاطفال والنساء والرجال وقد تجمعوا على حنفياتها ليشربوا ماء زلالا ، وتوقفت عند أحداها ومددت كفي لأرتشف رشفة من مائها العذب ، وصببت أخرى على وجهي لأجدد الحيوية في جسمي المكدود ، وأبعث النشاط في قدمي المتعبتين ، ثم واصلت سيري صعداً نحو الاعالي سعيا على القدمين ، إذ ليست هناك من وسيلة لتنقلك للشارع العام سوىٰ أن تجاهد صاعداً حتى باب الفتوح ، ولذا أقول يجب على المرء أن يستعين بحيويته ويستفيد من

مرحلة شبابه ، فيسافر ويتجول في أرجاء الدنيا —إن إستطاع لذلك سبيلا—قبل أن يفوته القطار ، إذ عندها سيقعد ملوماً محسوراً .

وبينا أنا كذلك رأيت على يساري محلا نظيفا لبائع اللبن وشوقتني بضع كؤوس شفافة غصت أفواهها باللبن الشهي ، فتناولت إحداها لأروي عطشي وأشفي غلتي ، وبعدها واصلت سيري البطئ فشاهدت خانا على يميني غاصاً بالمصنوعات الجلدية والفخارية والمعدنية ، فدخلته وتوسطت باحته المكشوفة ، تحيط بها غرف صغيرة مظلمة ، ومحلات ضيقة معتمة ، فكم هي شبيهة بخانات بغداد القديمة ورحت أقلب ناظري بين تلك البضائع الشعبية التي تدل على المهارة والخبرة في الصناعة اليدوية ، من بسط وزرابي بألوانها الفولكلورية الساذجة المتنافرة ، الى رسومها اللاهندسية البسيطة الباهتة وبينها تعرض الاواني والصواني البرنزية المطعمة بالأوراق والزهور وأصناف الحيوانات والطيور ، وأخرى حفرت عليها آيات قرآنية بالحروف الكوفية ، وهناك أزدحمت المزهريات الفخارية ، وهنا تكدست المصنوعات الجلدية من حقائب ومحافظ ومقاعد دبغت ولونت بالوان زاهية من أحمر قانٍ الى أصفر فاقع الى أخضر زاهٍ الى بني غامق ، الى إسود وأبيض ،

وبينا أنا أقلب ناظري هنا وهناك بين هذه المعروضات ، واذا بشاب يحييني (بونجور) ويسألني عن حاجتي بلغة فرنسية ، فأجبته شاكراً بلغتي العربية ، وقلت له أنا عراقي ، فرحب بي معتذراً إذ غشه لون بشرتي البيضاء وبدلتي الأوربية وقدم كرسياً ، فتهالكت عليه ، وجلس قربي مبتسماً مرحباً ، وأخذ يسألني عن بغداد ولياليها وقبابها ونواديها متشوقاً ، فوجدته يصغي إلي وكله آذان واعية ، ويحدثني وكله لهفة وتعاطف ومحبة ، ثم أمر معينه أن يقدم لي قدحاً من الشاي فترشفته ساخناً وودعته شاكراً ، وأدركت أن أهل فاس ظرفاء مثقفون كرماء جلهم يجمعون بين الثقافة العربية والفرنسية ، فقد رويت عنهم هذه المقولة المشهورة (أن العلم قمح نبت بالمدينة وصفي ببغداد وطحن بالقيروان وغربل بقرطبة وأكل بفاس) ويحضرني هنا قول إبن خلدون عن اهل فاس حيث قال (إنهم شديدو الحذر ، بعيدو النظر ، حتى ان أحدهم ليدخر قوت عامين) .



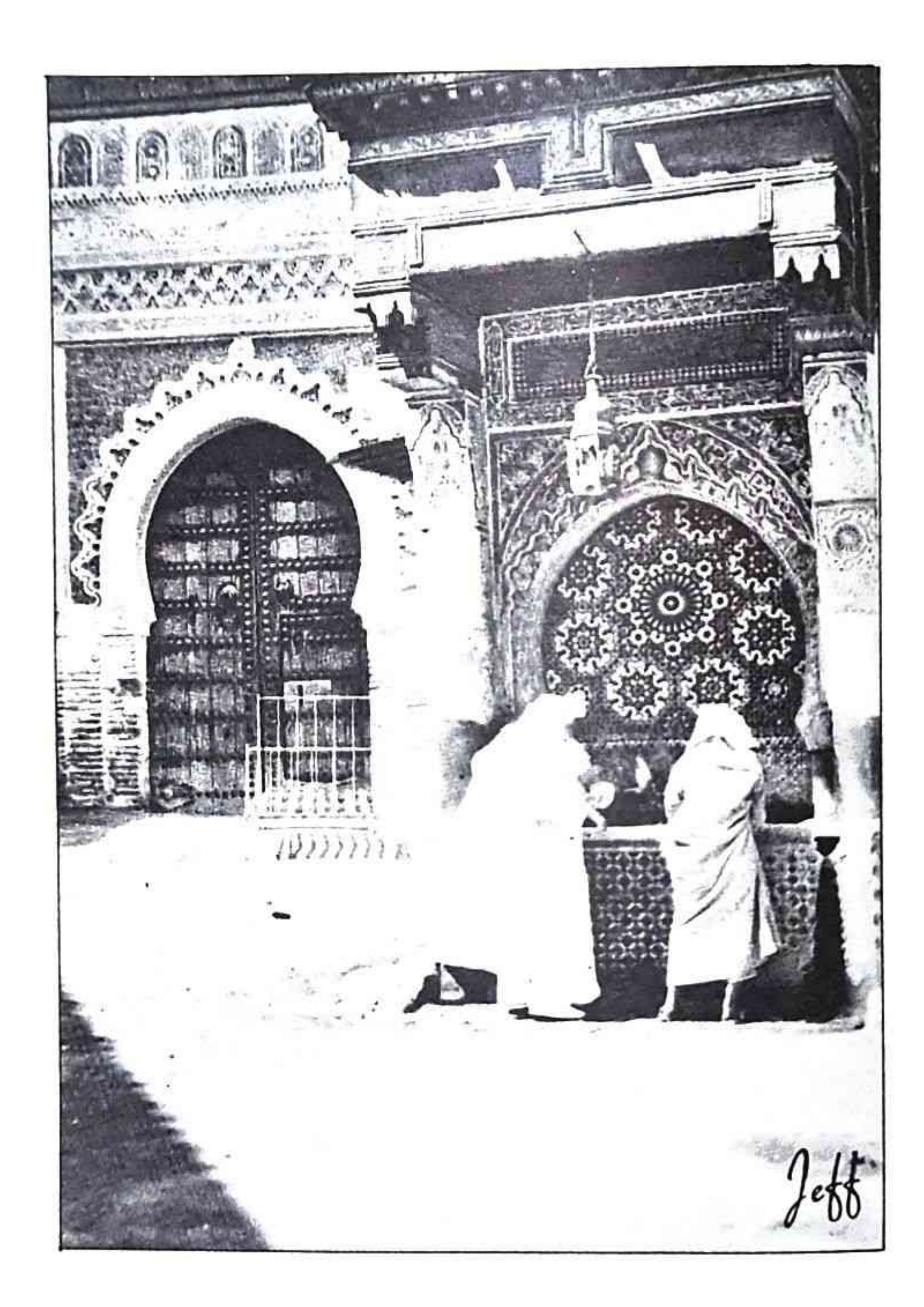
ضريح مولاي ادريس الثاني في مدينة فاس

وخرجت من باب الفتوح وسرت وحدي في الشارع متجها نحو (فاس الجديدة) وعندما وصلتها وجدت على الرصيف العريض قد إنتشرت كراسي حديدية طليت بالون الابيض ، لمقهى عصرية ، فجلست وجاءتني النادلة الأنيقة تسألني عن حاجتي؟ فطلبت منها غير الذي تمنيت ، ورجوتها أن تسقيني عصير برتقال ، ورحت أشربه ومنلوجي الداخلي يردد بصمت .

• ماضر لو جعلت كاسي مراشفها ولو سقتني بصاف من حمياها

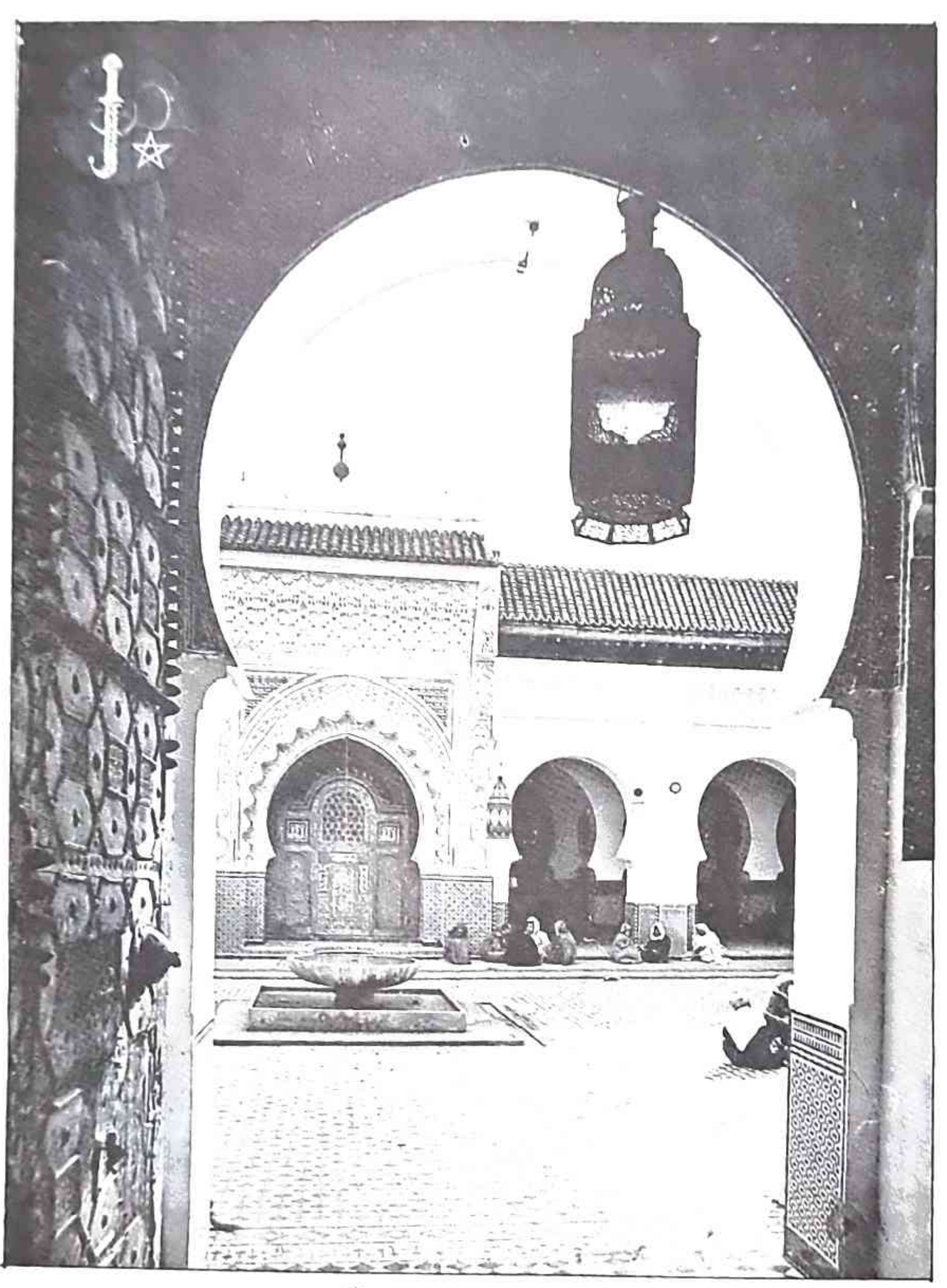
ثم استأجرت سيارة لتقلني الى حيث الفندق الذي يستقر في الحي الجديد من المدينة ، التي تمتاز بشوارعها الرحبة وساحاتها الكبيرة ومحلاتها المنضدة ومقاهيها وباراتها الأوربية ، فهي تختلف كل الاختلاف عن مدينة فاس القديمة التي وصفها ابن جبير في رحلته فقال (ان مدينة فاس تشبه دمشق) .

ودخلت الفندق لآخذ قسطي من الراحة ، فغفوت اغفاءة حالمةً ناعمةً ، إذ كانت الشمس تلملم وشاحها اللازوردي فيضفي لونها الغريب بهجة وروعة على هذه الطبيعة النضرة .



وجعلنا من الماء كل شئ حي

«قرآن كريم»



مدينة فاس باحة جامع القرويين

قصة بناء
(جامع القرويين)[1]

لبناء جامع القرويين الذي أصبح فيما بعد (جامعة القرويين) لكثرة من تخرج فيه من الأدباء والعلماء والرؤساء، قصة طريفة يسعدني حكايتها في هذا المقام.

يحكي لنا الرواة أن مجموعة كبيرة من أهل (القيروان) من تونس قد هاجروا في مطلع القرن التاسع الميلادي وإنتشروا في بلاد المغرب، حيث نزل بعضهم في مدينة فاس المضيافة.

ويحكى كذلك - والعهدة على الراوي - أنه كان من بين هؤلاء المهاجرين تاجر ثري إسمه (محمد بن عبد الله الفهري) الذي توفي بعد أن طحنت متاعب التجارة أيامه وقد تقدم في السن، مخلفا إبنتين رباهما فأحسن تربيتهما الدينية والدنيوية. وكان لورعه وتقواه دخل في تسميتهما إذ سمى الأولى (فاطمة) والثانية (مريم) وترك لهما ثروته الطائلة، وتفجرت الينابيع الخيرة في روحيتي البنتين الصالحتين فشيدت أم البنين فاطمة الفهرية جامع القرويين في مدينة فاس على قطعة أرض مساحتها حوالي الف ومائتين وخمسين متراً إشترتها قريبة من وسط المدينة، ثم شرعت في بناء المسجد، في مطلع رمضان من عام ٢٤٥ هجرية، وظلت السيدة فاطمة صائمة طيلة فترة بنائه، وعندما قام البناء صلت في المسجد شكراً لله الذي أنعم عليها بنعمة الأيمان والمال.

وكان الجامع منذ تأسيسه داراً للعلم، فهو أقدم جامعة في العالم، ومع توالي الأيام إنتشر فضل جامعة القرويين في نشر العلم وأضحى مدرسة سار على نهجها عدد كبير من مساجد فاس وجوامعها حتى توابع جامعة القرويين أضحت مائتين وخمسين فرعا وستمائة مدرسة من بينها مدارس خصصت للفتيات.

---

(١) كلمة القرويين نسبة الى مدينة القيروان التي هاجر منها المهاجرون الى فاس واستوطنوا محلة سميت بالقيروان. ثم إنقلبت بمرور الزمن تخفيفا حتى أضحت تسمى القرويين.

وإستمرت الأضافات الى الجامع تتوالىٰ منذ أن أضاف اليه (أحمد الزناتي) عامل عبد الرحمن الناصر الذي أقام الصومعة الماثلة أمامنا حتى الآن ، ثم جاء (المنصور بن أبي عامر) فزاد فيه ، وبعده قام (علي بن يوسف اللمتوني) من (دولة المرابطين) بتوسيعه ، وفعل مثل ذلك ملوك (دولة الموحدين) ، وكذلك ملوك دولة (بني مرين) إذ قام السلطان (أبو عنان المريني) بتشييد عدة مدارس حول الجامع ، كما أسس فيه خزانة للكتب ، ثم أقام (يوسف بن تاشفين) (مدرسة الصابرين) عام ٤٥٠هـ كما ساهم السلطان (ابو سعيد عثمان بن يعقوب) في بناء (مدرسة العطارين) المجاورة للجامع . وشيد (أبو عثمان) مدرسة (البوعنانية) التي تعد بحق آية من روائع الفن . في زخارفها ونقوشها وطرازها المعماري العجيب شيد ذلك كله لتكون هذه المدارس تابعة لجامع القرويين ، ولذا سمى (بجامعة القرويين) وفيها قال الشاعر (خير الدين الزركلي) .

أم البـــــنين ازداد مجداً بها ... فـهـر وفـهـر من بـنـيـه الـنبي

أرست صـخيرات فـكـن الهدىٰ ... لـلـنـاشئ الـيـافـع والأشيب

وكـن للأجـيـال أحـدوثـة ... لـلـمـفصح الموجـز والمطـنب

الـــقـــرويين التي نحتفي ... بـيـومـهـا الخالـد في الأحـقب

لـيست بـذكـرىٰ أو بـأسطورة ... نحن أمـام الهـيـكـل الأعـجب

الىٰ الرباط ثانية

وفي الصباح الباكر رجوت سائق (التاكسي) أن يوصلني الىٰ حيث كراج (الأوتوبيس) ليقلني الىٰ المدينة ، وأنا مغتبط بهذه الرحلة القصيرة المليئة بالحكايات الواقعية والغارقة بالأحداث التأريخية .

وعند ظهر ذلك اليوم وصلت الرباط ، فوجدت زوجتي مغتبطة مسرورة تحدثني عن العناية والرعاية التي حظيت بهما من عقيلة سفيرنا في المغرب ، وذلك ليس بغريب علىٰ شهامته ولا بجديد على حسن ضيافة عقيلته البصرية ، فقد صحبتها طوال يومين من غيابي للبيوتات والقبولات المغربية ، وسرني أنهما قامتا بزيارة دار استاذها (عبد الغني الدلي) لترد اليه الفضل في تدريسه لها في مرحلتها الجامعية . ثم عقبت بأننا غداً مدعوون علىٰ الغداء في دار السيد السفير ، وصباح غد ساكون مدعوّا لأرتشاف فنجان قهوة في مكتب العلامة (السيد علال الفاسي)[1] .

وفي المساء دعانا السفير الصيني للعشاء على شرف السيد السفير العراقي .

يا سلام ، فقد تكاثرت عليّ المسرة ، وتشابكت المواعيد الطيبة ، ولكنني كنت على اهبة السفر لزيارة (مدينة مراكش) ولكن كما يقول الحكماء (الامتثال من حسن الأدب) لذا سمعت وامتثلت فأستجبت .

وفي ظهر غد أبى الصديق السفير الا ان يقلنا بسيارته للدار الفخمة التي تمتلكها

---

(١) العلامة علال الفاسي : عالمٌ أديب وشاعر يعد في الطبقة الأولى من شعراء المغرب ، وكان نسيج وحده في الأدب والسياسة ، حيث كانت له مواقف أدبية مشرفة وكذا مواقفه السياسية الرائعة . حتى أضحىٰ رئيسا (لحزب الاستقلال) المغربي ، فقضىٰ شطراً من حياته على الساحة النضالية لتحرير بلاده من النفوذ الفرنسي ، حتى نالت المغرب استقلالها .

وقد إتصف هذا الزعيم السياسي ، بقوة الأيمان وصُلابة العقيدة وسداد الرأي ، والجرأة المتناهية في قول كلمة الحق والصدق .



سوف تدهشك براعة الراقص في حفظ توازنه .
إذ تستقر صينية الشاي علىٰ رأسه .

جمهوريتنا العراقية ، فدهشت لهندستها المعمارية الرائعة ، وأعجبت بزخرفتها المغربية الأندلسية البديعة ، حيث طعم سقف صالونها الرحب بأشكال المنمنمات والمربعات والمعينات العربية ، وطليت بماء الذهب فزادتها فخامة ونضارة ، ثم صفت المائدة العربية فاذا بها قد غصت بالأكلات الشرقية من البامية والرز والكباب والقوزي والواقع انها تكفي لثلاثة أضعاف الضيوف ، لما فيها من أصناف الاطعمة الشهية . ولأول مرة أجرب أكلة (البسطيلة)[1] .

وعدنا للفندق لنأخذ قسطنا من الراحة في اغفاءة القيلولة ، حيث في المساء توجهنا لدار السيد السفير الصيني ، الذي يحب العراق ويستضيف العراقيين . لأنه شغل منصب السفارة في بغداد طوال ثلاث سنوات ملؤها المودة وحسن الضيافة . فقدمنا للسيدة الأنيقة عقيلته ثم لأولاده الذين رأيناهم يرتدون (البنطلون) القصير ويقفون وراء منضدة (البنك بونك) ويمسكون بالمضرب ، ورحنا نراقبهم بحبور . فأنا أهوى هذه الرياضة المحببة ، واجيدها ، ومن ملاحظاتي الخاطفة وتعليقاتي العابرة ، على الضربات الفنية والكبسات المحكمة ، أدرك الحاضرون ذلك ، فقد منى السيد السفير الصيني لعقيلته على ان اتبارى معها بلعبة ودية ، ومسكت المضرب ورحت أجرب حظي الخاسر دوما باللعب مع الاقرباء والاصدقاء . . . فكيف بي وأنا العب مع سيدة حسناء . . . !

وبعد إنتهائنا من اللعبة . . . والنتيجة واضحة ، توجهنا للمائدة الصينية الشهية ، حيث حوت الاكلات الغريبة اللذيذة حتى إنتهت بالشاي على الطريقة الصينية اذ صُبَّ باكواب مزخرفة ومذهبة .

وبعدها صحبنا السيد السفير وعائلته لقاعة كبيرة ركز على جدارها شاشة سينمائية ، وراح يعرض لنا – بفخر واعتزاز– فلما وثائقيا عن الحرب التحريرية ، والواقع أنا إنسان عاطفي مسالم اكره العنف والحرب ، بل وحتى الضرب ، حتى لو

---

(١) البسطيلة :– أكلة مغربية قوامها طير الحمام الذي يحشى باللوز والجوز ، بعد ان يخمر بالتوابل والبهار ، كي يضفي عليها نكهة وطعما زكيا ، ثم يسكب عليها سائل سكري يزيدها طيبة ولذة .

كان على حساب استحقاق حق مغتصب ، فاجنح للمفاوضات المنطقية واللقاءات السلمية ، وكثيرا ما تكون مجدية ، ولو أنني لا انكر ان هناك مستفيدين قلوبهم غلف ، واستعماريين عقولهم ضيقة ، فهم لا يفهمون العقلانية والكلام ، ولا يتعاطفون مع الانسانية والسلام ، عندها يجب أن يكلموا بمنطقهم منطق القوة ، كقوله تعالى (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . .) .

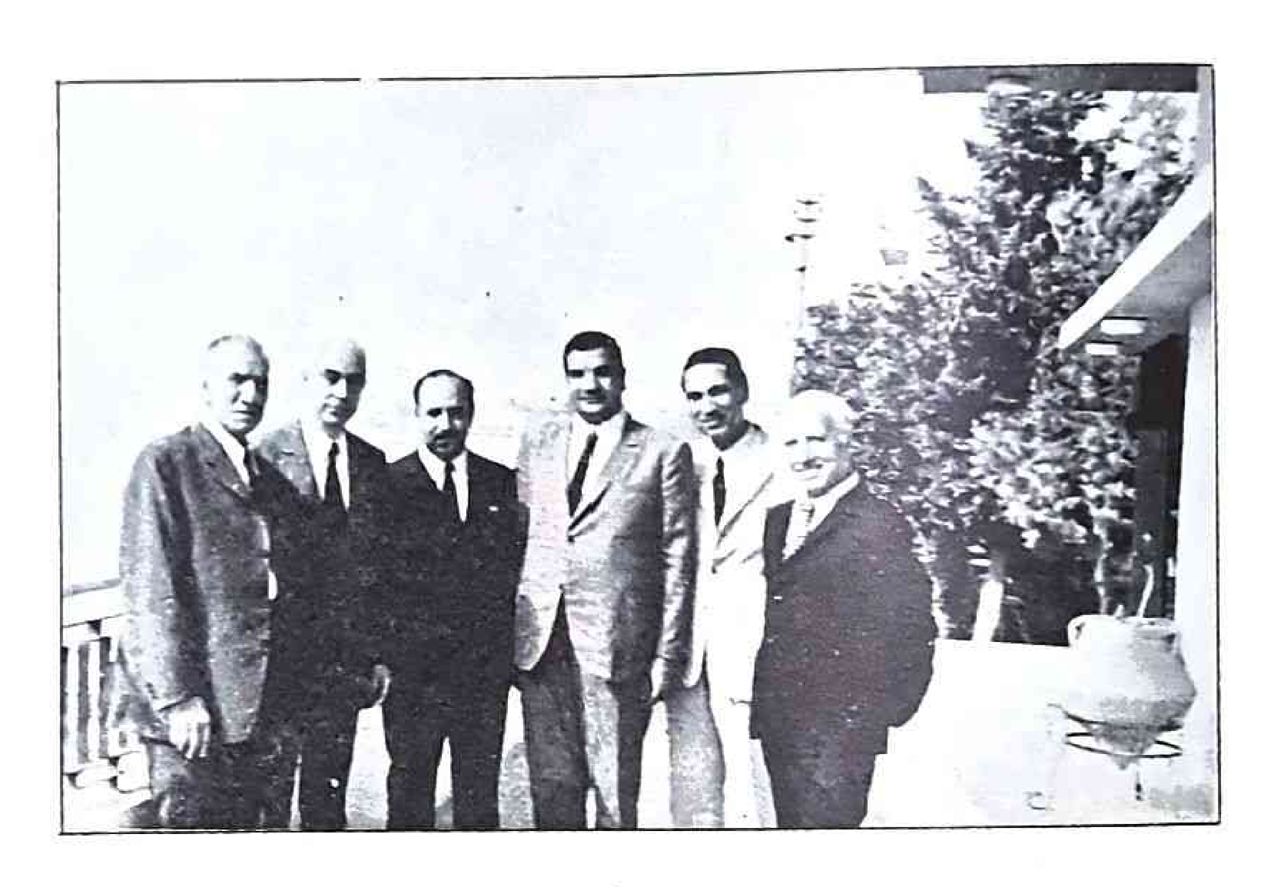
وبعد ان انتهى الفلم الحربي الذي صور لنا المآسي المروعة لتلك الحرب التحريرية ، شاهدنا الشعب الصيني يسجل بها أروع الملاحم البطولية ، غير أنني كنت خلال مشاهدتي لهذا الفلم الوثائقي ، والألم يعتصرني والحزن يحز في نفسي ، كيف لا وأنا أرى تلك الجموع من الضحايا البريئة تتساقط في سوح المعارك الطاحنة ، لذا بت ليلة قلقة .

وفي الصباح الباكر لجأت الى (البانيو) وغطست فيه لأعطي الحرية لجسمي المشدود ، ولتسترخي اعصابي في دفء هذا الماء المنعش .

وعندما رن جرس التلفون خرجت من الحمام ، واذا بالمتكلم صديقي العلامة (عبد الكريم غلاب)[1] يدعوني لأرتشف الشاي في مكتبه بمقر (جريدة العلم) فتوجهت مسرعا اذ كنت في شوق اليه والى أحاديثه الودية وعواطفه الأخوية فاقتطفت لحظات حافلة بالأدب ، وحملني تحيات لأدباء فضلاء في بغداد ، ودعاني للعشاء فاعتذرت لأنني كنت على عجل من أمري حيث حجزت بطاقاتي لأسافر بالقطار عند المساء الى مدينة مراكش الخالدة .

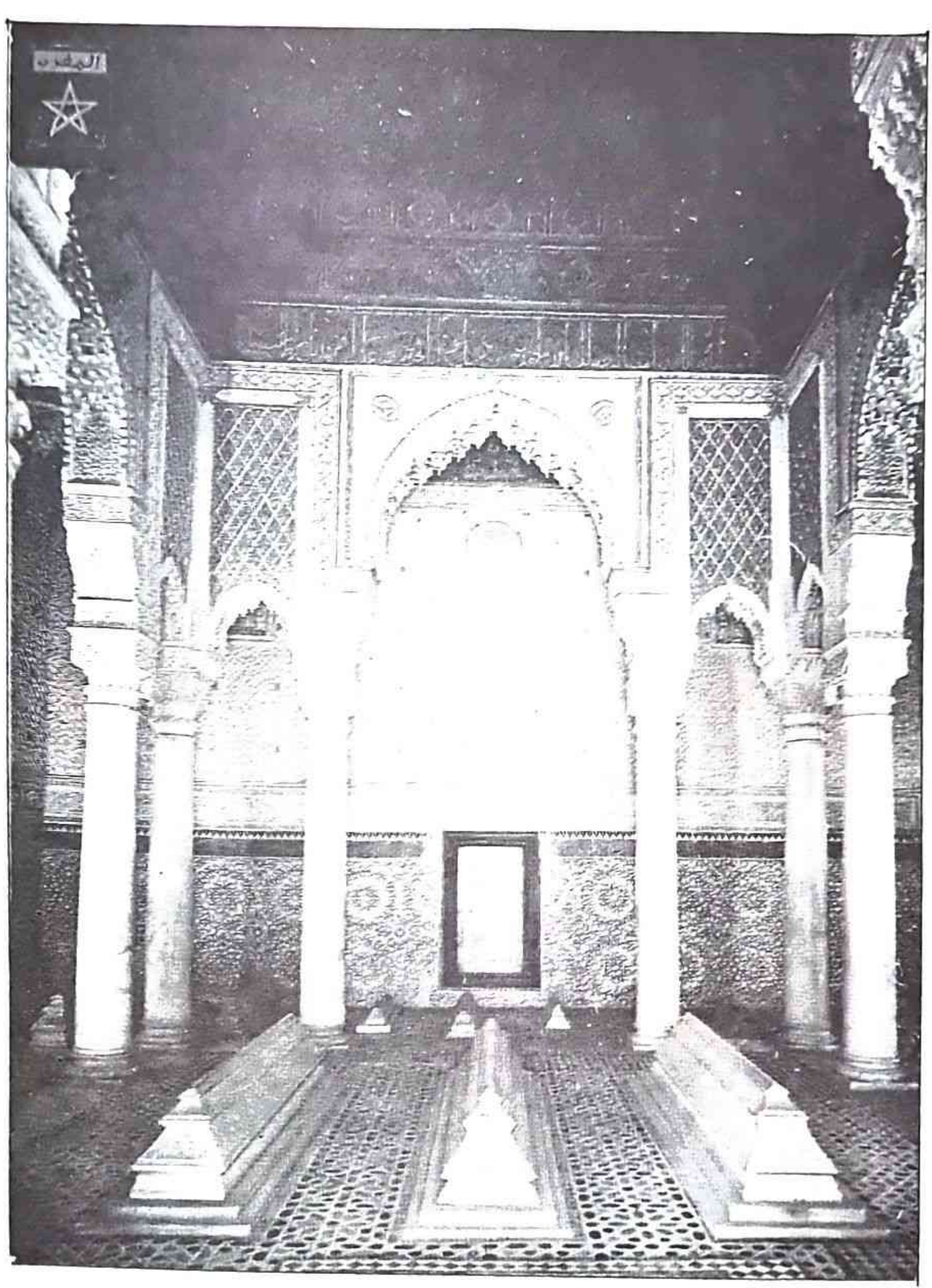
---

(١) ولد الاستاذ عبد الكريم غلاب في مدينة فاس عام ١٩٢٠م وما روايته البديعة (دفنا الماضي) الا رواية مدينة فاس في زخمها التأريخي والروحي والحضاري . تلقى تعليمه في كلية الآداب بجامعة القاهرة . والاخ عبد الكريم دبلوماسي من الطراز الاول ، شغل وظيفة وزير مفوض ، عزف عن الوظيفة وتفرغ للصحافة فترأس تحرير جريدة (العلم) ومجلة (آفاق) لاتحاد الكتاب في المغرب ، اضافة الى مؤلفاته في الادب والسياسة . وأميز ما يتميز به الاخ عبد الكريم غلاب اضافة الى خلقه وفضله ، ايمانه الثابت بعروبة المغرب ، ونضاله الوطني في صفوف (حزب الاستقلال) .



إحتفاء صاحب الرحلة بالأستاذ عبد الكريم غلاب
عند زيارته بغداد

من اليسار الى اليمين الأساتذة علي الخاقاني ، المحتفى به ، سالم الآلوسي ، خالص عزمي ، حارث طه الراوي ، صاحب الدعوة



مراكش قبور السعديين

مراكش

بعد رحلة مريحة في القطار الذي أقلنا من مدينة الرباط الى حيث تستقر مدينة (مراكش)[1] على سفوح جبال الأطلسي وسميت حمراء بسبب اللون الاحمر الذي يغلب على تربتها وحجارتها ، كما تمتاز مدينة مراكش بموقع ستراتيجي مهم . حيث تشرف على طرق الصحراء جنوب المغرب ، ولجمال موقعها لقبت (جوهرة الجنوب) .

وبينما كان القطار الكهربائي يطوي الارض طياً بسيولة وسهولة ، فيهدهد أجسامنا ويمتع عيوننا بالتطلع الى الحقول الخضراء ومياه البحر الزرقاء ، ثم نرى قطع الغيوم القطنية متناثرة هنا وهناك لتحجب عنا جلال قبة السماء .

كانت هذه المناظر الطبيعية الخلابة مبعث سرور لقلوبنا ومدعاة بهجة لأبصارنا .

وسرعان ما تتبدل المناظر الجميلة فسرعة القطار الخاطفة تنقلك بخفة من منظر نضير الى آخر أكثر نضارة ، فما أن تشاهد قرية تنحدر اليها عيون المياه مكونة سواقي وقنوات ، والقطار يعبر قناطر حديدية وجسورا تظللها أشجار النخيل بجذوعها الشامخة وسعفها الحاني ، وكذا أشجار الزيتون والسنديان والبرتقال والرمان ، وبعدها يتبدل المنظر بسرعة وخفة فترى التلول والصخور تحجب خلفها القرية ببيوتها المتواضعة الغارقة في خضرة الأشجار .

وهكذا أضحت حافلة القطار وكأنها شرفة (بالكون) في سينما تعرض لك فيلماً يتنقل بك بين عوالم الطبيعة ومفاتنها .

واذا تطلعت من نافذة القطار راح النسيم الرخي يلامس صفحات وجهك ، حاملا العطر الندي المتصاعد من تربة هذه الأرض المعطاء .

وهكذا يأخذك القطار متنقلا بك من سهول منبسطة تغتسل حافتها الرملية بمياه

---

(١) مراكش : لفظة مغربية تعني (امش مسرعا) **ويقال إن سبب تسميتها هو ان أرضها كانت موطنا للصوص وقطاع الطرق . لذا كان المسافرون إذا وصلوا اليها أسرعوا في سيرهم لاجتيازها .**

السواقي والأنهار والبحار ثم نشاهد جبالا تكتظ بالغابات وتزدحم بأشجار السنديان والسرو وتتنقل على أغصانها الطيور .



منظر لمئذنة الكتيبية في مراكش
ونشاهد بائعي الماء بزيهما الفولكلوري الغريب

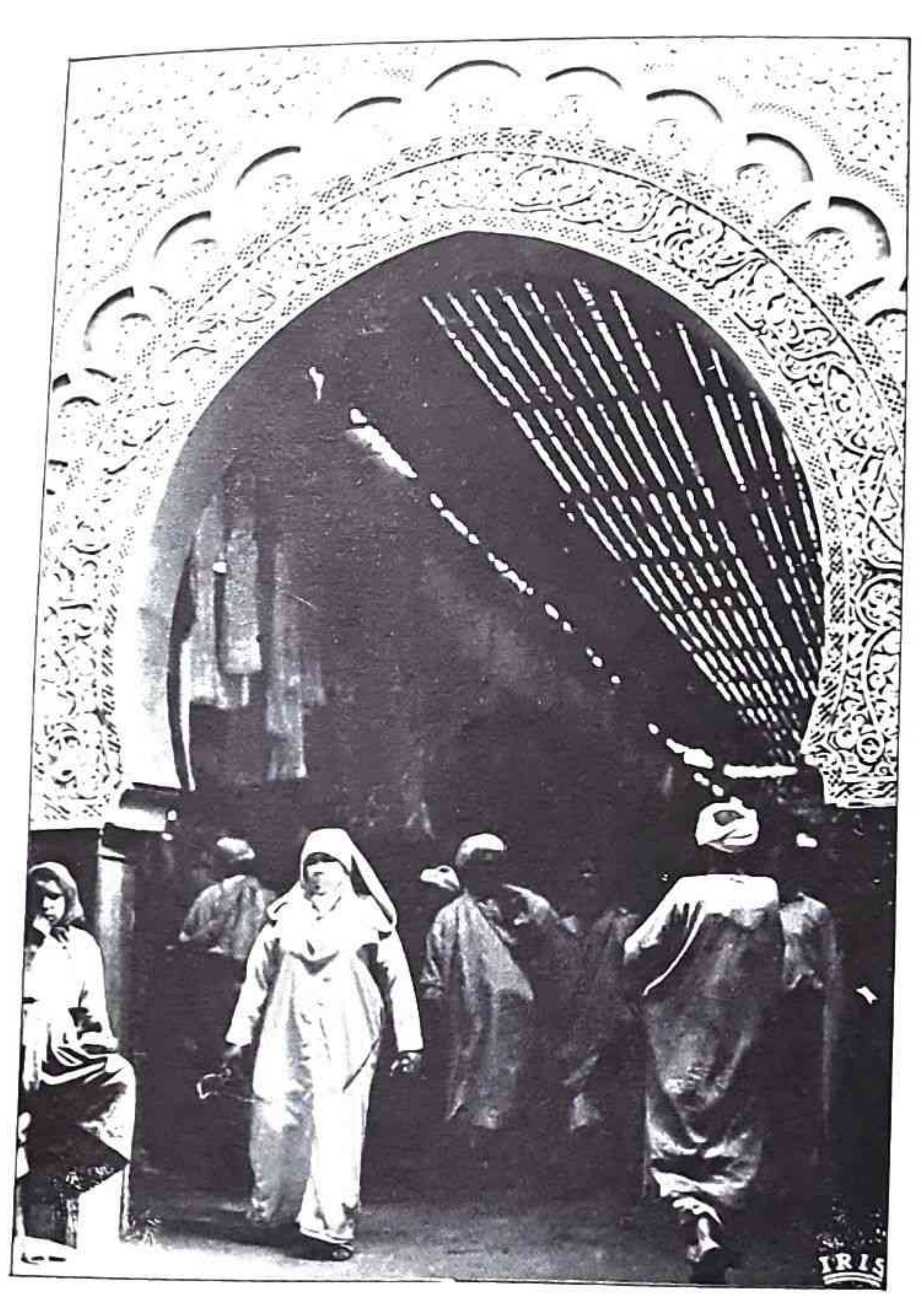
وبعد أن أمضينا بضعة ساعات قصار بحافلة القطار الأنيقة ، وصلنا مدينة مراكش الأثرية ، فالفيتها مدينة تغفو بين الوهاد الحمراء وكأنها لون الغسق الحالم ، وحينما طوفت ناظري بأرجائها شاهدت عن بعد (الكتيبية) تلك المنارة الأثرية التي شيدها السلطان الموحدي عبد المؤمن بن علي عام ١١٥٣ م ، على انقاض (قصر الحجر) الذي كان مقرا لحكام المرابطين .

ومدينة مراكش كشقيقاتها من مدن المغرب تنقسم الى مدينتين تسير كل منهما بالبناء والنمو والازدهار لتلتقي مع شقيقتها وتصافحها رغم الفوارق الطبقية .

فهذه مراكش القديمة ظلت تعيش وما زالت داخل قصورها الفخمة تتوسطها حدائقها الظليلة وتحتضنها أسوارها العالية ، وتتناثر بينها دور صغيرة متلاصقة مظلمة ، تغفو في أزقة متعرجة ضيقة ، فالمدينة القديمة تجمع بين الجمال والأبهة ، حيث أن مبانيها تشابه قصر الحمراء بحجارتها الحمراء القرميدية النقية ، فالسائح حينما يتجول بها يشعر بنشوة قاطع الصحراء وزهو متسلق الجبال ، وذلك لأن مراكش تقع في أرض الصحراء القريبة من جبال الأطلس .

وقد إختارها (يوسف بن تاشفين) أمير دولة المرابطين ، وإشترى أرضها من المصامدة ثم شيد عليها مدينة مراكش عام ١٠٦٢م واتخذها عاصمة لملكه ، ولم يشيد لها سوراً لأعتقاده بأن عدالته وشجاعته هما سوره الحصين ، ولأهمية موقعها الأستراتيجي وجمالها الطبيعي أضحت عاصمة المغرب لثلاثة عهود من تأريخ المغرب ، فهي أولاً عاصمة المرابطين وثانيا عاصمة الموحدين وثالثا عاصمة السعديين لذلك أمست غنية بالآثار ، ومن هنا اكتسبت أهميتها السياحية .

أما مدينة مراكش الحديثة التي شيدت عام ١٩١٣م على بعد كيلو مترين من المدينة القديمة ، بشوارعها الرحبة وبيوتها الحديثة وبناياتها الفخمة ، وأهم شارع لفت نظري هو شارع (محمد الخامس) وعرضه ٤٠ مترا غرست الاشجار على جانبي أرصفته العريضة ، واذا ما تطلعت الى نهاية الشارع شاهدت (صومعة الكتيبية) شامخة عالية .



مدخل سوق السمارين
في مدينة مراكش

لقد شيد هذه التحفة المعمارية (السلطان عبد المؤمن) الموحدي . إذ بناها عام ١١٥٣م على أنقاض قصر الحجر الذي كان مقرا قديما لحكام المرابطين . وقد أكمل تشييدها (السلطان أبو يوسف يعقوب) عام ١١٨٤م .

وعندي أن تصميمها الهندسي شبيه كل الشبه (بصومعة حسان) في الرباط . وكذا تشابه تصميم (الخيرالدا) التي شاهدتها في مدينة أشبيلية الأندلسية .

وعند الليل تسلط الأضواء على هذا الأثر الخالد الذي يعد بحق من أروع آثار دولة المغرب . إذ ما زال شامخا يتحدى الزمان طيلة ثمانية قرون . وهو بمثابة منار يسترشد به الى حيث تستقر مدينة مراكش الخالدة .

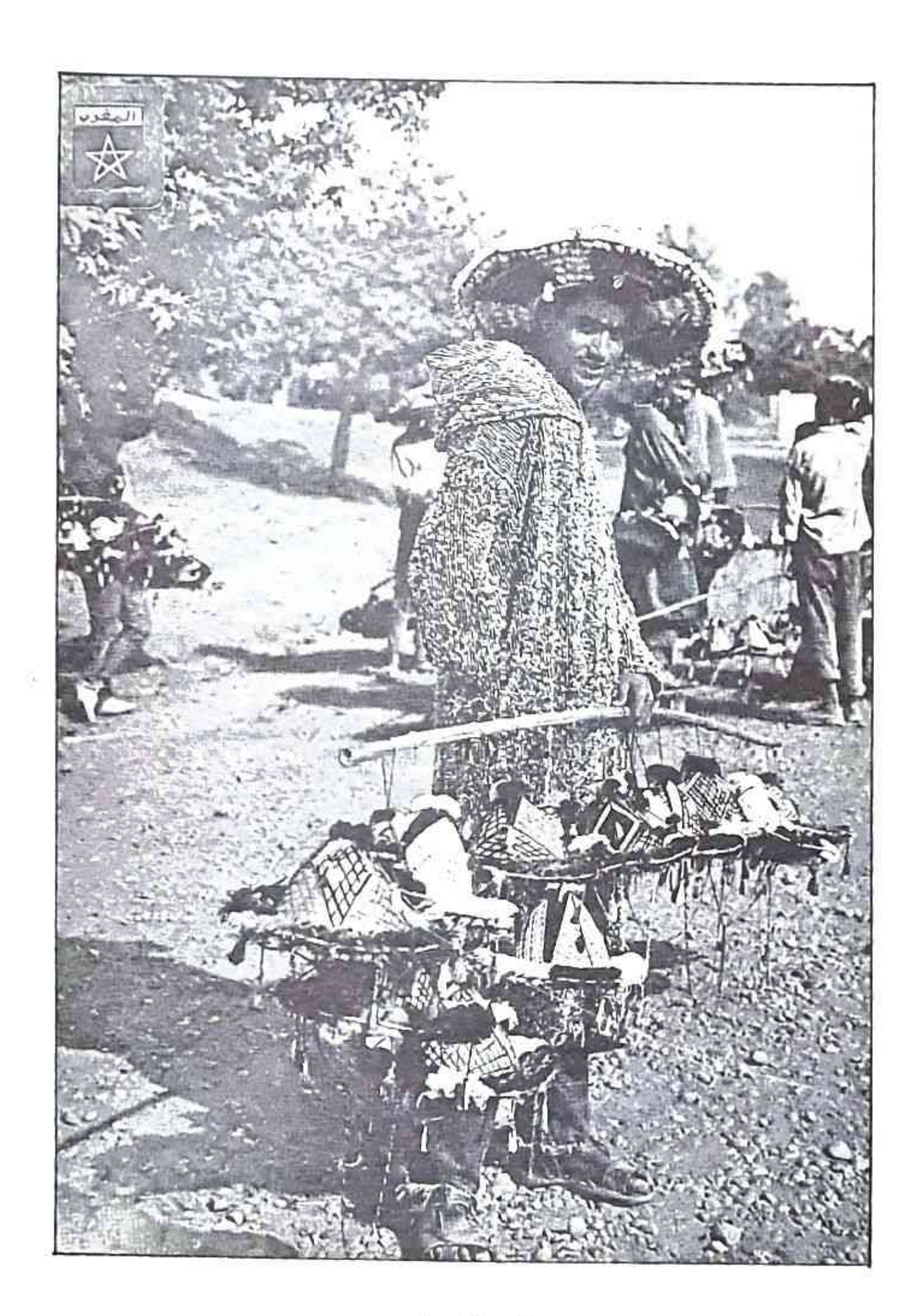
فمراكش بمدينتها القديمة والحديثة تدهشك بآثارها ومآثرها التي خلفها المرابطون والموحدون والسعديون .

فالموحدون شيدوا (جامع الكتيبية) الذي إشتهر بمنارته الخالدة . و (مدرسة أبن يوسف) التي ما زالت تزهو بحلتها الوردية ومرمرها النقي وفسيفسائها الفني وأخشابها المنقوشة المطعمة والمخرمة .

وأما السعديون فآثارهم ماثلة في مجموعة بنايات هندسية بالغة الروعة في الفن المعماري والهندسي . (كقصر البديع) و (قبور السعديين) .

وتأسرك مراكش بجمالها وبهائها . إذ أنها تقع على مرتفع عال عن سطح البحر شتاؤها لذيذ وصيفها جميل وطقسها معتدل فمنابع المياه تنحدر اليها من جبال الأطلس لتروي ظمأ بيوتها وتسقي عطش بساتينها الغناء ، التي قل نظيرها في الخصب والعطاء . حيث تنتشر هنا وهناك أشجار البرتقال والزيتون والتفاح والتين والرمان والكروم والليمون . وتكتحل عيناك بخضرة سعفات النخيل بجذوعها الشامخة للأعالي . . . فذكرتني بغابات نخيل (البصرة) ثغر بلادي الباسم للزوار والضيوف . وكذا تشابه أخلاقهم بأخلاق أهالي البصرة الكرام . حيث الطيبة والأريحية . وكأن الشاعر العربي عناهم حينما قال :

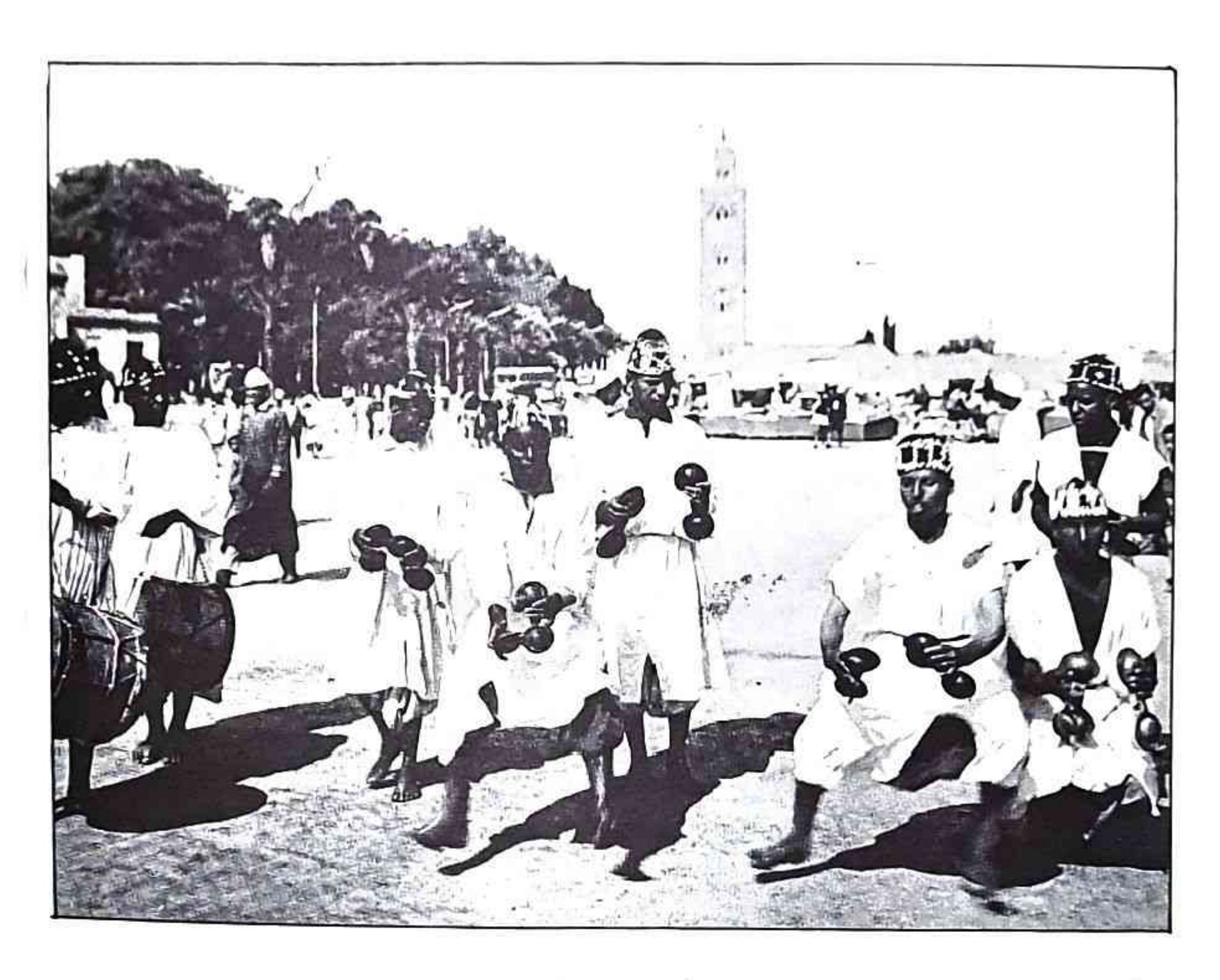
إذا قـــالوا أهلاً مـــرحـــبـــاً نـــبـــعت لهم
مـــيـــاه الـــنـــدى من بين أهـــل ومـــرحب



بياع القبعات
في مراكش



مراكش
ساحة جامع الفناء
اللعب بالحيات



رقصة شعبية
في ساحة الفنا - بمدينة مراكش

ساحة الفنا

أمام سوق مراكش القديم تواجهك (ساحة الفنا) والواقع انها (ميدان لجامع الفنا) وهو ميدان فسيح جداً ومدهش حقاً ، وذلك لكونه يحتوي على غرائب العادات وعجائب التقاليد ويتمسك بالكثير من الخرافات ، وتتخلله ألوان من المفاجآت .

فعندما تقترب عقارب الساعة من الخامسة مساء ، تجد زرافات ووحدانا من السياح والمغاربة يتدفقون على هذه الساحة الواسعة يتجولون حولها ليشاهدوا الحوانيت المتجولة التي يدعونها في الغرب (أسواق الفراشة) لأنها وقتية ويمكن نقلها من مكان لآخر بسرعة كما تتنقل الفراشة من حقل لآخر .

واذا ما تجولت على جنبات الساحة ستشاهد تلك الحوانيت تعرض المصنوعات الجلدية وكذا النحاسية والفخارية بل وحتى الفضية ، تتخللها المطاعم والمقاهي الشعبية .

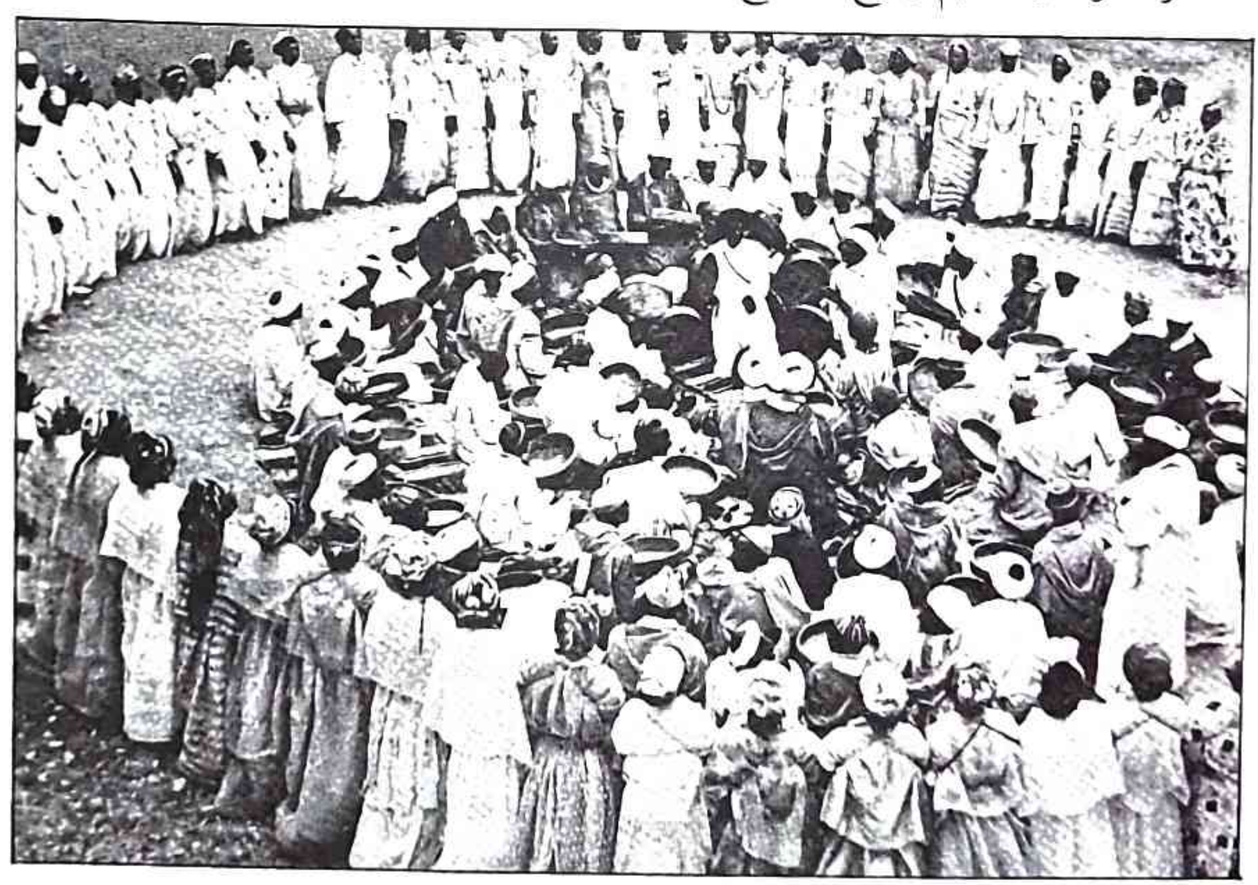
أما إذا راق لك أن تسير وسط الساحة ، فستجد حلقات من الدجالين والمشعوذين قابعين على بساط متهرء أو بقايا حصير بالية ، وحولهم حلقة من السياح يأخذون لهم الفأل ويحدثونهم عن الماضي وخفايا المستقبل وما يأتي به حسن الطالع وما يرسمه الخط الباسم ، كي ينفحوهم بسخاء ويضاعفوا لهم العطاء . . .

وهناك يركز أحد السياح عدسة آلة التصويركي يلتقط بعد ستة الحساسة ذاك المنظر الغريب للقردانية والحواة ومروضى الثعابين والثعالب ، ومدربي الكلاب والقطط والبلابل والطيور .

وإذا ما سرت قليلا ستجد العطارين ينشرون ظروفاً ملونة صغيرة تضم مختلف الأدوية العطارية من حشائش برية الى مواد طبيعية ، يعلنون عنها جهراً ويعددون مزاياها علناً ، فيبتاعها البسطاء ويتناولها السذج كعلاج شاف للأمراض المزمنة المستعصية . . !

وهناك تجد حلقة من الناس يتوسطهم راوية يروي لهم قصصاً كقصة (أبي زيد الهلالي) و (الشاطر حسن) وجلها قصص اسطورية خيالية ، لا وجود لها الا في المخيلة الحالمة . . ! ولكن الناس هم الناس في كل زمان ومكان ، تستهويهم الغرائب ، ويحلقون مع الأوهام ، لينسوا أو يتناسوا هموم الواقع المرير ويتشبثوا بالأحلام المجنحة .

وحينما تواصل التجوال في الساحة يصحبك الجو الصاخب المضطرب باصوات الطبول والدفوف والصاجات ، فترى أناساً يرقصون رقصاً بدائياً هستيرياً ، ثم يتوقفون بغتة عن الأيقاع والرقص ، فتشخص الأبصار الى رئيس الحلقة الذي يرفع طاقيته عن رأسه ، ويتقدم بها صوب المتفرجين ليضعوا فيها ما تجود أيديهم . . . ثم يعود لمكانه ويعود كل الى شأنه ، وتعود أصوات الطبول والدفوف ، ويتابع الراقصون رقصاتهم بفرح وابتهاج .



حفلة زفاف مغربية



الرقص الشعبي في الريف المغربي

وبينما كنت أسير في خضم هذا المهرجان الصاخب إذا برائحة الشواء تفوح من المواقد التي أعدت لشي اكباد الأغنام وقلوبها . . . فز قزقت لها عصافير معدتي وجرتني نحوها قدمي . . . فما كان من البائع الا أن يقدم لي قلباً ملفوفاً برغيف من الخبز الشهي . . . وكم تمنيت أن يكون هذا القلب نابضاً بالعطف والحب . . .

وهنا يتعرف السائح على العديد من الوان الفنون الشعبية ، إذ أن (فرق الهواة) تاتي الى هذه الساحة من كل حدب وصوب وهي تمثل كل الأقاليم المغربية .

ويقينا أن الشعب المغربي شعب محب . . محب للموسيقى والرقص ، ولذا فلكل موسم زراعي ولكل مناسبة دينية أو وطنية رقصتها الخاصة بها ، يمارسها الناس بدقة

وتوقيت مضبوط ، حتى خلال نزول الثلوج أو نشوب الحروب ، وتختلف الرقصات باختلاف المناطق أيضاً ، ويطلق هنا على الرقص إسم (الشطيح) وعلى الراقصة (الشطاحة) وأثناء حفلات القبائل ترقص الفتيات على دقات الطبول فيصفق لها الرجال ويرددون مشجعين (إشطحي يا حلوة إشطحي) . . .

ومن المعلوم أن مدينة مراكش تتميز بموسيقى (الدقة) التي يعرفها أصحاب الصناعات التقليدية ، وهي عبارة عن الضرب الجماعي على (الصاجات) المزدوجة تتناغم مع دقات (الدف) ، وتعد مراكش حاضرة الفنون الشعبية لذا هي تحتضن (المهرجان الوطني الفولكلوري) الذي يقام كل عام داخل المسرح الذي أقيم في (قصر البديع) الذي بناه أحمد المنصور السعدي ، فتغنى به الشعراء لعظمة بنائه وبهاء منظره .

ثم قفلنا عائدين الى الفندق ، حاملين في قلوبنا الحب مطبقين جفوننا على آخر نظرة للمغرب ، ولجأنا الى الغرفة كي ناخذ نصيبنا من الراحة بعد أن تجولنا تجوالاً مغبوطاً في أربع دول عربية مغربية - آملا أن تكون حصيلتها أربعة كتب في أدب الرحلات - أرفعها للمكتبة العربية (ليبيا تونس الجزائر المغرب) .

وقبل أن نأوى لفراشنا رحنا نلملم حوائجنا ونحزم حقائبنا ، لنكون جاهزين غداً للرحيل الى (سويسرة) لألتقي بولدي سعد الذي يسعى لنيل شهادته الجامعية ، ثم لأحضر إفتتاح معرض الصناعات السويسرية الذي يقام سنويا في مدينة (بازل) ولأطلع على أحدث الصناعات وأدق الساعات .

ولما وجدتني في غبطة ونشوة ، إنسللت الى الشرفة الرحبة وجلست أعب أريج أربع زهور أفريقية ، وأعيد شريط رحلتي الرائعة ، لخلوها من التكلف والبهرجة ، فصليت بصمت شاكراً لربي لما أغدق علي بالكثير من نعمائه وآلائه .

وبينما أنا سارح الفكر في هذا العالم العلوي ، إذا بي أجد زوجتي تقف بجانبي ، مستغربة عزوفي عن النوم الهنيء بعد ذلك التجوال بين المعالم والآثار . فأجبتها : أجدني يا عزيزتي في نشوة روحية لا تعادلها نشوة شارب الكاس من إبريق جارية

عباسية . . . هي نشوة الأسفار وجمال الكون يضفيه عليهما حب الأنسان لأخيه الأنسان . . . فدعيني أبحر في عالم الجمال . . . أجابتني : إني أرى جمال كل ذلك في تألق عينيك .



المصادر

سنتان في المغرب   الاستاذ جابر الفؤادي
رحلة الى المغرب الاقصى   الشيخ العلامة محمد رضا الشبيبي
المغرب   الاستاذ حسن محمد جوهر
والاستاذ صلاح العرب عبد الجواد

١٤ يوماً في المغرب   الاستاذ محمد رضا شرف الدين
النبوغ المغربي   الاستاذ عبدالله كنون
المعجزة المغربية   الاستاذ أحمد عسّه
تأريخ المغرب   الاستاذ محمد بن عبدالسلام بن عبود
تأريخ افريقيا والمغرب   للرقيق القيرواني
تحقيق الاستاذ المنجي الكعبي

الادب العربي المعاصر   للاستاذ خالص عزمي
تأريخ المغرب في القرن العشرين   تأليف روم لاندو
وترجمة نيقولا زيادة

تأريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمةد .احمد السعيد سليمان
جريدة (العلم) المغربية

رقم الأيداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٢٧٤ لسنة ١٩٨٣

١٥/٢٠٠٠ - ١٩٨٣/١٢/٥

مطبعة الاديب البغدادية هاتف 8881232

انتــاج المؤلــف

١-رسائل من الهند : من آدب الرحلات .

(مطبعة الرابطة-بغداد-١٩٥٨)

٢-قصّة الوقت : دراسة عن التوقيت تجمع بين العلم والأدب .

(المطبعة الكاثوليكية-بيروت ١٩٥٩) .

وقد ترجم الى الانكليزية ونشر في جنيف-١٩٦٢ .

٣-كتبٌ قرأتها-في النقد الأدبي .

(مطبعة دار الجمهورية-بغداد-١٩٦٢) .

٤-من وحي السفر - من آدب الرحلات .

(مطبوعات اينانا-بغداد-١٩٦٦) .

٥-مع الايام - مجموعة اقاصيص -

(دار الاندلس-بيروت-١٩٦٧) .

٦-من ادب الرسائل .

٧-رحلة الى الأندلس .

٨-رحلتي الى افريقية العربية-ليبيا

٩-رحلتي الى افريقية العربية - تونس

١٠-رحلتي الى افريقية العربية - الجزائر .

١١-رحلتي الى افريقية العربية - المغرب .

عن الكتاب والكاتب

لم يكن غريباً ان يقوم الاستاذ ناجي جواد الساعاتي باخذ قلمه ليسجل مذكراته عن زيارته لوطنه الثاني (المغرب) . فقد لمستُ منه منذ اللحظات الأولى التي زارني فيها وانا امارس وظيفة السفير لبلادي بالعراق الحبيب لمست فيه الشوق الزائد لتلك الزيارة . . .

ولقد شكرت للاستاذ ناجي انه لم ينسَ معارفه القدامى . . وعسى ان تحرك مذكراته هذه اخواننا الآخرين لزيارة ديارهم هنا . .

الدكتور
عبدالهادي التازي

مطبعة الاديب البغدادية هاتف 9881232